أحتياج

نيرمين عبدالله

إهداء

الي جدتي" زوزو "الي أول من دق له قلبي، الي الشمس التي لا تغيب، وان غابت فبريقها ساطع بقلبي .. أُحبك بعدد ماتنفست.

ليست كلمات علي صفحات ولكنها فضفضة قلب، فلا تندهش إن وجدت نفسك في سطرٍ أو جُملة أو حتى كلمة، فأقدارُنا خيوط تتشابك لتشكل نسيجًا واحدًا هو" الحياة"، ولذلك صفحات الرواية لا تمت للكاتب او لاي شخص بـ صلة.

الكاتبة

أحضنوا أبناءُكم فسيدو الزمن وستحتاجون حُضنَهم.

أحضنوا أبناءكم فلن ينسى إبن أبدًا حُضن والديه، في حياتهم أو بعد رحيلهم، احضنوهم قبل أن يفوت وقت الحُب.

نرمين

حنان، أتجاهل سبب تسميتي بهذا الاسم؟ !لم أفكر يومًا أن أسال أمي أو أبي عن سبب اختيارهم هذا الاسم أو حتى من الذي اقترحه !لكن السؤال الذي أفكر به أحيانا من الذي فقد الحنان أكثر من الآخر ؟؟ أبي أم أمي ؟ من الذي اختار اسمي كناية عن احتياجه للحنان!
لم أشغل بالي كثيرا بأسئلة لم ولن أجد لها إجابات.
لم يكن اسمي فقط مجرد اسم، بل كان صفة تميزت بها عن أفراد عائلتي وأيضًا أصدقائي وأقاربي، كنت أنا كمنبع متدفق من حنان يحتاجونه.
جدتي (رحمها الله) كانت دائما تقول لي:

_ أنتِ اسم على مُسمى يا حنان.

أنا الآن في الثامنة والعشرين من عمري، أُتممهم أول أمس في العاشر من أكتوبر، أستمع إلى منير وهو يغني) امبارح كان عمري عشرين(، سنتان فقط علي الثلاثين عاما، أعيش ربع قرن وثلاثة أعوام، مضحك هذا الأمر،أعلم.
كيف لي أن أمضي كل هذه الأعوام ولا شيء تغير؟ كل هذه السنوات ولم أفعل أي شيء أتذكره كي أكتبه حتى إن نويت أنْ أكتب مذكراتي !! لا شيء.

ولدتُ وسط أشهر أحياء القاهرة في أسرة مكونة من أربعة أفراد؛ الأب، الأم، أنا، وأخي محمود يصغرني بأربع سنوات.

أسرة تشبه الكثير من الأسر المصرية، أسرة هادئة لدرجة مميتة، الكآبة عنوانا لها، إن بحثت بها عن أي علاقة لن تجد.

عشت طفولة تعيسة، لم تكن يوما طفولة سوية، أب وأم لا يعرفان معنى التفاهم، لا صوت يعلو فوق صوتهم، أسمعهم كل ليلة يتشاجران، أبكي أسفل أي جدار بالمنزل من الخوف، لم أر يومًا أبي وأمي يتعانقان أو أبي يطبع قُبلة علي رأس أمي، أو حتى ربتت أمي على كتف أبي.
لم أكن كباقي الأطفال الذين لا يخلدون إلي النوم إلا بعد حكاية قبل النوم، كنت أراها فقط في الأفلام والكارتون، افتقدت معنى الحنان والعطف منذ الصغر، تعلمت معنى العقاب منذ نعومة أظافري، كنا حقا أسرة مُفككة، لا أستطيع أن أتذكر كم مرة أخذنا أبي لنخرج معًا كأسرة سعيدة مترابطة.

كنت أرى الأطفال يلعبون أمام منزلنا،أنظر إليهم من شرفتي، فلا يليق أبدًا ببنات العائلات اللعب في الشارع خاصةً في وجود اولاد.

كلما كبرت في العمر وبدأت علامات البلوغ تظهر، كلما قست على أمي، دائمًا كنت أسمعها تتحدث مع خالتي وتقنعها أن هذه هي التربية السليمة للبنت، لم أعرف من أين جاءت بهذه المعلومات المغلوطة؟ كم تمنيت أن أعرف من قائل عبارة " اكسر للبنت ضلع يطلع لها " 24 كي أقطع له لسانه لأنه كان بمنتهي البساطة سبب تعاستي وتعاسة الكثير من الفتيات.

تربيت تربية" ميري"، خالية من الدلال والعطف والحب .. البنت يجب أن تظل عالقةً برقبة أمها إلا في حالتين، إما أن تتزوج وإما أن تموت، حفظت هذه العبارة مثل اسمي بسبب تكرار أمي لها.
ظللت أردد عباراتها وأحفظها جيدًا حتى وإن كنت أجهل بعض معانيها، أصبحت يومًا بعد يوم أكره معاني الأنوثة، مثلي مثل العديد من البنات اللاتي تربوا في أسرة كأسرتي، لم تتحدث أمهاتهم معهم عن الدورة الشهرية ولم يقوموا بتوعيتهم، أتذكر جيدًا أول مرة جاءتني الدورة

الشهرية كنت في عامي الرابع عشر، شعرت بالخوف، كيف أحكي لأمي فأنا أموت خجلا منها!

وعندما علمت أمي وجهت لي أهم النصائح، لم تكن نصائح مطمئنة لأي بنت أو حتى نصائح تفيدها في هذا الأمر الغريب عليها، بل كانت كلمات تحمل الكثير من الخوف جعلتني أشعر بأن هذا الأمر" مُصيبة "تظل عالقة بالبنت للأبد، قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر لو اقترب أحد منها..

كلمات مبعثرة لم أفهم منها شيئًا، سوي أنى تحملت المسؤولية مبكرا، حملت تفكيرًا مصحوبا بالقلق، فقدت معاني الطفولة مبكرا، حرمتني أمي من اللعب مع أصدقائي وأقاربي حتى ممارسة هوايتي ركوب الدراجة، فهي غير محببة للبنت حسب قول أمي.

أصبح الخوف مضاعفًا عليَّ، لن تتركني أغيب عن عينيها لحظة، معها في كل مكان، أجلس جانبها، وإن ذهبت للعب مع أحد أقاربي في الغرفة المجاورة، تأتي وتهاجمني وتسألني " كانت بتقولك إيه ؟؟ تاني مرة، تلعبوا قدام عيني، أنتِ فاهمة"

شعرت بأنني كَبرت وتبخرت طفولتي .. وكلما زاد عمري عامًا، أشعر بكرهي يزيد لنفسي، كلما زادت تغيراتي الفسيولوجية أكره أنوثتي، كنت دائما ألبس ملابس فضفاضة حتى أُخفى حجم ثديي.

وصلت للثانوية العامة، أبي يرافقني في كل الأماكن حتى في دروسي الخارجية.

كنت أشعر بالحرمان من كل شيء، أنتظر أمي تدخل غرفتي وتقول لي":أخبار حبيبتي إيه؟ "أو أنتظر أبي يقول لي" :تعالي أخرجك النهاردة ."أو يأتي أخي لنسهر معًا نشاهد فيلمًا.

كل فرد في بيتنا له مزاجه الخاص، أبي يجلس في غرفته يستمع إلى نشرة الأخبار، أمي عالقة بالمطبخ وأعمال المنزل، أخي بغرفته، وأنا ايضا بغرفتي، أذاكر لدقائق وأسرح مُتحسرة على حالي وأغرق في الحزن المكبوت بداخلي منذ سنوات.

كانت لدي أحلام، يومًا بعد يوم يموت لي حلمًا، وأسبوعًا بعد أسبوع يموت لي أمل، وشهرًا بعد شهر تموت لي ابتسامة، وعامًا بعد عام تذبل وردتي، وأموت شيئا فشيئا، حتى صرت هشة ضعيفة معدومة الكيان.

بقيت هكذا حتى وصلت لمرحلة الجامعة، لم أشعر بنفسي وبأنوثتي، لم أشعر بجمالي الذي أشاد له الكثيرين، أملك عينين واسعتين لونهم مائل إلي الزيتوني، وبشرة بيضاء، وطابع حسن غائر في منتصف ذقني، شعري بني ناعم وشفاهي ممتلئة، وقوامي ممشوق.

دخلت كلية السياحة والفنادق جامعة القاهرة مع ثلاثة من أصدقاء المدرسة المقربين، كانوا أكثر مني وعيًا ونضجًا عني وتحررًا أيضا، لا أنكر أن الحصار خف قليلا عني، فكانوا يسمحون لي بالذهاب إلى الجامعة مع صديقاتي.

كان عالمًا غريبا وجديدا عليَّ، رأيت البنات يجلسن مع الشباب أمام الجميع، والبنات تهتم بأنفسهن كثيرا، حتى صديقاتي) هالة، شيرين، ونورهان (تغيرن كثيرًا عن مرحلة الثانوية العامة، زادت دائرة معارفهن وأصبح لديهن أصدقاء شباب.
كنت أكثر تحفظا مع أصدقائهن من الشباب، ولم أكن أجلس معهم، حتى جاءت صديقتي هالة في يوم وقالت لي:

_ايه يا بنتي هو أنتي هتفضلي كدا؟؟
فكيها شوية، احنا في الجامعة مش لسه تلامذة في ثانوي.

سرحت في كلامها وشعرت أن معها حق، قلت لنفسي؛ متى سأظل هكذا؟ !لا أبي معي ولا أمي، لمَ كل هذا؟ أنا لم أعش أي سن، وهذه آخر مرحلة في عمري كي أعيشها، آخر فرصة لي كي أصبح كباقي الفتيات.
أصبحت أشاهد ملابس البنات وتسريحاتهم وطريقة وضعهم للماكياج، شعرت بنفسي

عندما قال أحد أصدقاء هالة وشيرين ونورهان" صاحبتكم دي حلوه اوي."
صرت أركز في نظرات الشباب لي في الجامعة وأجعلهم يعجبون بي.

يومًا بعد يوم أصبحت أشبه صديقاتي والبنات في الجامعة، أصبح لي " شله " تحتوي على بنات وشباب نجلس معًا في كافيتريا الجامعة، تغيرت كثيرا عن السابق ولم أندم لحظة على هذا التبدل، تغيرت لكني ظللت حافظة دروس أمي الماضية، تغيرت لكني حافظت على العادات والتقاليد، وحافظت جيدًا على الحدود ما بيني وبينهم، الحياة من حولي بدأ يظهر لها ألوانًا غير الأبيض والأسود اللذين عشت بهما سنوات، وجدت أنه لا بد لي من الاعتناء بنفسي، وأن الله لن يغضب عليَّ إن أحببت نفسي وأحببت أنوثتي، وجدت أنني لن أحمل أو سأفقد عذريتي لمجرد صداقتي مع الشباب .أدركت حينها مفاهيم حفظتها منذ الصغر ولم أفهمها.
نعم أحببت تغيُري.

كل شيء تغير من حولي إلا أهلي، الصمت المميت كما هو، الكآبة والحزن كماهما، العزلة والوحدة يزدادا يومًا بعد يوم .. دائما كنت أكره لحظة خروجي من الجامعة وعودتي إلى المنزل، أكره الوحدة التي أعيش فيها يوميا، أكره حلول الليل بعتمته، دقائقه طويلة وساعاته أطول، أنتظر حلول النهار كي أخرج من ذلك السجن اللعين وأذهب إلى الجامعة.

أحب نفسي أكثر كلما أسمع كلمات الغزل من أصدقائي الشباب، كنت سعيدة كلما رأيت نظرات الإعجاب في عيونهم، يوميًا أسمع منهم:

_إيه الجمال ده ؟؟
_لا إنتي النهارده زي القمر.
_ايه يا عم الشياكة دي؟

كنت ألاحظ نظرات الحب من صديقي " خالد" ، أستمتع بها جدا لكني لم أنجذب إليه،

ولم أوقف أسلوبي الناعم معه حتى لا يوقف نظراته واهتمامه بي.
حتى جاءت صديقتي " نورهان " متسائلة:

_هو أنت جبت حبي خالد؟
_لا طبعا.
_يا بنت يده باين عليكِ وعليه أوي.
_لا لا خالد صديق مش أكتر.
_لا هو باين إنه معجب بيكِ وأنتي كمان.
_طيب أنا مالي؟ هو معجب أنا أعمله ايه؟
_خلاص يبقي تحاولي تبيني له إنك مش معجبة بيه، وتخفي شوية من أسلوبك معاه.

****

كنا في الثاني من فبراير أقصى الشتاء، ذهبت إلى الجامعة مع " هالة ونورهان " وشيرين جاءت بمفردها؛ لأنها قضت يومين مع جدتها.
كانت جدة شيرين جارة لأحد لاعبي كرة القدم نصف المشهورين، وكان صديقًا لـ شيرين منذ فترة طويلة، وبسبب انشغاله وسفره الدائم قليلا ما تراه.
في ذلك اليوم صادف وجود شيرين عند جدتها مع أيام إجازته، فعرض عليها أن يذهب معها الجامعة ليقضي معها يومًا.
كُنا في انتظار صديقتنا الرابعة، لكنها لم تجئ بمفردها، جاءت ومعها" عُمر"، لتُعرفنا عليه، كان عمره وقتها يتجاوز الثالثة والعشرون، وسيم إلى حد ما، طويل وجسمه متناسق.
أهم ما يميزه، حديثه الذي لا يخلو من الكلمات المعسولة لا يتحدث إلا بكلمات:
"جميل، روحي، حبيبتي، قمر، الخ،، " معروف عنه بعشقه للبنات، وعلاقاته، ونزواته.

تعرفنا عليه تحت المطر، كان اليوم أكثر برودة من أي يوم، عرض علينا أن نخرج من الجامعة ونجلس في الكافيتريا المجاورة للجامعة حتى يهدأ الجو.
وافقنا وخرجنا معه،" نورهان وهالة "تعرفتا عليه بسرعة البرق، جلسوا يتبادلون الضحك والمزاح معه وأنا فقط مستمعة وأضحك معهم بهدوء.
كنت قليلة الكلام وقتها، أنظر إليه عندما يتحدث، وكان يرسل إليَّ نظرات خاطفة كل حين، لا أنكر أنني انجذبت إليه بسرعة فائقة، كان خفيف الدم وواثقًا من نفسه ولسانه عذبًا، هادئًا، نظراته لي تختلف تمام عن أي نظرات أخري.

انتهي الوقت سريعًا، وأنا لم أتحدث معه إلا قليلا جدا، صديقاتي سألوه هل سيُكرر زيارته لنا مرة أخري ؟ .. وعدهم أنه سيأتي كل يوم حتى تنتهي إجازته، بحجة أنه أحببنا كثيرًا وأننا " شلة "مرحة، سلم عليهم وجاء دوري لأمد يدي وأسلم عليه، لا أعرف لماذا توترت عندما لمست يده، شعور غريب أصابني، لم أفهم معناه، رعشة ضربت جسمي وتوتر عنيف سرى في أنحائي، نورهان وهالة طوال الطريق يتحدثان عنه، وعن مدي رقته وجماله وخفة دمه، وأنا أستمع إليهم فقط وأرد عليهم في قرارة نفسي بأن معهم حق.

حاولت النوم، لكنني لم أستطع قبل أن اتصل بـ " شيرين "كي أتأكد منها إن كان عُمر سوف يأتي غدًا أم لا؟ وبطريقة غير مباشرة علمت منها أنه سيأتي.

لم أنم جيدًا بسبب التفكير فيه، ظل طيفه يناوشني، يجب أن أكون خفيفة الظل معه، يجب أن أبدو جميلة غدًا، أفكر ماذا سوف ارتدي، ظللت هكذا أنام نوما متقطعا حتى أتى الصباح، ارتديت أجمل ثيابي ووضعت الماكياج الخفيف وصففت شعري بطريقه مناسبة.
عندما رأوني هاله ونورهان بدأوا يتبادلون عبارات السخرية:
_إيه ده ؟؟ إيه الموضوع ؟؟
_الشياكة دي وراها حاجه كدا ؟؟ الله اعلم.

حاولت أن أخفى سبب تألقي هذا اليوم بكلمة واحدة" عادي"، لكنه لم يكن عاديًا أبدا، نعم أهتم بمظهري كل يوم، لكن ذلك اليوم كان اهتمامي مضاعفًا.

تأخرت شيرين ساعة عن موعدها معنا، فقامت هالة بالاتصال بها، أخبرتها أنها في الطريق مع عُمر، دق قلبي سريعًا عندما علمت أنه قادم.
بعد دقائق وجدت شيرين تقترب منا ومعها عُمر، كان يبدو أجمل من أمس، وكأنه فعل مثل ما فعلت واهتم بمظهره أكثر من أجلى.
سلم علينا جميعا وجلسنا في كافيتريا الجامعة، ظل يحكي عن مشواره الكروي وعن رحلاته وسفره ومواقفه الكوميدية، لكنني ذلك اليوم كنت ألطف معه عن اليوم السابق، كنت أضحك وأشاركه الحديث وأساله، كان لطيفًا معي جدا، ويمكنني أن أقول إنني شعرت بنظراته الدافئة.
مر اليوم سريعًا جدًا وجاء وقت الرحيل، كنت أتمني أن يطول الوقت أكثر، وفي طريقنا جميعا إلي بوابة الخروج، وجدته جانبي واستغل حديث أصدقائي الثلاثة معا وهمس لي بصوت منخفض:

_هشوفك بكره؟

وجدت نفسي أرد عليه سريعًا دون تفكير:

_أكيد طبعا.

عدت إلى البيت، وأنا أفكر فيه، لم يغب عن بالي لحظة واحدة، كنت أسمع عن الحب من أول نظره ولا أفهم معناه، فهل هذا هو فعلا الحب من أول نظره ؟!
تمنيت أن يكون هذا حبا، كانت خبراتي قليلة بل لم يكن لديَّ خبرات على الإطلاق، لم أستطع تفسير حالتي، هل هذا حب؟ وكيف تكون أول خطوة على طريق الحب؟ لا أعلم ولا أفكر فأنا مستمتعة بشعوري هذا، مر اليوم بطيئًا جدا حتى أتى الصباح.

رأيته وكل يوم يزداد جماله، يتغير في نظري إلى صورة أفضل من التي هو عليها، عرض علينا أن يعزمنا على الغذاء ووافقنا.
كنت أول مرة أركب معه سيارته، تخيلت نفسي وأنا اركب بجواره وألمس يده.
أخذنا لأشهر مطاعم القاهرة، أعجبني كرمه فهو فعلا مثال للرجل" الجنتل."

نظراته لم تفارقني أثناء الغداء، حتى عندما كان يتحدث كان يوجه كلامه لي، بعد الغداء أخبرنا أنه سيغادر غدا إلى الأردن لأن لديه " ماتش " لم أشعر بنفسي ولاحقته بالسؤال:

_ايه ده؟ يعني إحنا مش نشوفك بكره؟

رد عليَّ وكأنني فتحت له الطريق ليتقرب مني أكثر، ورد قائلا:

_بكره صعب بس أنا هاجي بعد أسبوع اكيد هشوفكم وهاتوا بأه أرقام تليفوناتكم علشان أطمن عليكم.

شعرت بالفرحة وسريعا أخذت رقمه وأخذ هو أرقامنا.

انتهي اليوم الثالث وأنا حزينة لأنني لم أره اليوم التالي، لكن أُطمئن قلبي أنَّ معي رقمه.
عندما عدت إلى بيتي وجدت " شيرين " تحدثني على هاتفي:

_آلو... .إيه يا شري؟

_حنان، أنا حاسة إن عُمر معجب بيكي اوي.

_ليه بتقولي كدا؟

_كل شوية عمال يسألني عليكي ويقول صاحبتك دي أموره وكدا.

وكأني كنت أنتظر كلمات شيرين لتجعلني أتعلق به أكثر، ظللت أفكر به وأفكر في كلمات شيرين، وأنظر إلى رقمه على هاتفي فقط ليطمئن قلبي أنني سأحدثه ذات يوم.
لم تمر دقائق ووجدت هاتفي يرن وجدت اسمه على الشاشة، لم أصدق شاشتي، زادت دقات قلبي وارتبكت حد أنني لم أعرف ماذا أفعل!
فتحت باب غرفتي وتأكدت أن الجميع نائم، أغلقت الباب وجلست على سريري وقمت بالرد بصوت مهزوز مصحوبا برعشة؛

_الو.

_آلو .ازيك يا قمر؟ عامله إيه؟

_أنا الحمد لله كويسة.

_يا رب ما كنش بضايقك باتصالي ده.

_لا لا خالص.

_أنا مبسوط أوي إنى عرفتك، قصدي عرفتكم يعني.

_واحنا كمان والله.

_أنتي كنتِ زي القمر انهاردة.

_ربنا يخليك.

_وزعلان أوي إنى مش هشوفك بكرة.

_معلش بأه ان شاء الله لما تيجي بالسلامة نشوفك.

_أنا هسافر الصبح الساعة 8 لو صاحية ممكن اتصل أسلم عليكي.

_آه طبعا أنا باصحى من بدري جدا.

_خلاص يا حنان، أنا هكلمك الصبح قبل مسافر.

_خلاص هستناك.

_أوك، سلام يا جميل.

_سلام.

أغلقت المكالمة وشعرت بقلبي يدق بعنف، يا إلهي، يكاد يتوقف تمامًا عن النبض، لم أفكر في أي شيء سوى كلمه " حبيبتي " التي قالها قبل أن يغلق، لم أسمعها في حياتي.
تمنيت أن أكون حبيبته فعلا، صوته لم يغب عن بالي لحظه واحدة، كنت أنتظر الصباح حتى أسمع صوته مجددا، لم تغفل عيني هذه الليلة، فقط انظر إلى عقارب الساعة.
مر الليل ولا أعرف كيف مر !رن هاتفي في الثامنة إلا ربع صباحا وكان هو " عُمر:"

_أيوه يا عمر.

_صباح الخير يا جميل.

_صباح النور .ازيك.

_أنا تمام علشان سمعت صوتك.

صمت خجلا، لا أعرف بماذا أرد على رقته هذه؟ فلاحق هو خجلي وقال لي.

_إنتِ عامله إيه؟

_أنا تمام الحمد الله .إنتَ هتسافر إمتي؟

_أنا في المطار دلوقتي طيارتي كمان نص ساعة.

_توصل بالسلامة.

_الله يسلمك أنا هكلمك أكيد من الأردن.

_خلاص اوكي.

_خلي بالك ع نفسك يا قمر، سلام.

_ماشي .سلام.

نعم أحبه، أول كلمة أخبرت بها نفسي بعد إنهائي المكالمة، قلت لنفسي نعم أنا أحبه، نعم هو الحب، نعم هو الحب من أول نظرة ومن أول لمسة، ومن أول كلمة.
مرت ساعات قليلة على ذهابي للجامعة، سألت صديقاتي هل اتصل بكم عُمر؟؟ وكأنني أريد أن أعرف، هل أنا فقط من يهتم بها؟ أريد أن أعرف، هل يبادلني الشعور نفسه؟؟
أجابتني صديقاتي بالنفي، فرحت جدًا وأخبرتهم أنه اتصل بي مرتين، وكأنني أريد أن أقول لهم إنه معجب بي أنا فقط، وأن أمسح أي تفكير في عقلهم تجاهه.
رأيت في عيونهم علامات استفهامٍ كثيرة، لكنهم أخفوها بضحكاتهم وسخريتهم:

_أيوه يا عم .ماشية معاك.

_الله يسهلوا بأه.

كنت أبتسم خجلا، وبداخلي سعادة تفوق الحدود بأنني فزت به.
جلست أنا وشيرين، وحكيت لها كل ما حدث، أخبرتها أنني حقا معجبة به جدا، وأفكر به ليلا ونهارا .ردت عليَّ شيرين ردا لم أكن اتوقعه:

_حنان خلي بالك من عُمر .عُمر مش سهل وبتاع بنات.

استوقفني كلامها لحظات قليلة، ولم أنتبه إليه، محوت هذه الجملة من مخيلتي كي لا أتذكرها وتؤثر على الحالة التي أعيشها، اكتفيت بالصمت.

في المترو أثناء طريقي إلى البيت، كان محمد منير يغني بصوته القوي الناعم:
"من أول لمسة، غيرلي سنيني، نسيني، رسيني على أول مرسى"

كنت أسمع كلمات الأغنية وأفكر به، تمنيت أن أقول له هذه الأغنية في يوم.
عدت إلى البيت وكنت أنتظر منه مكالمة .لم تغفل عيناي للحظة عن النظر إلى الهاتف، وكأنني لن اسمعه إذا رن .ساعات طويلة مضت حتى فقدت الأمل في اتصاله، ذهبت للنوم لكني لم أستطع، حتى رن هاتفي في الثانية من منتصف الليل؛

_آلو
_حنان يارب ما كُنش صحيتك.
_لا أنا كنت صاحية.
_عاملة إيه يا جميل؟
_الحمد الله، وأنت؟
_أنا تمام، أول ما خلصت تمرين كلمتك على طول.

_شد حيلك .ربنا معاك.
_أنا جاي بعد يومين إن شاء الله .لازم أشوفك.
_خلاص إن شاء الله.
_هكلمك بكرة ...خلي بالك من نفسك.
_وأنت كمان ....باي.
_باي.

مرت ثلاثة أيام على سفره وكان يتصل بي كل يوم، لم تكن مدة المكالمة طويلة لكنها تختصر كل شيء بداخلي .

في اليوم التالي لوصوله إلى القاهرة .اتصل بي وأبلغني أنه سيأتي غدًا الجامعة، أبلغت صديقاتي الذين كانوا يسألون عن تطور علاقتي بـ عُمر!
كنت أنتظره بلهفة وكأنني لم أره منذ عام، سلمت عليه بحرارة شديدة، جلسنا أنا وهو وصديقاتي، تحدث كثيرا وأنا لم أنطق بكلمه، اكتفيت بالنظر له باشتياق، كان يجلس بجانبي، توقف الحديث الجماعي، ودار حوار بين هالة وشيرين ونورهان، وكنت أنا وعُمر في صمت، نظر إليَّ ولاحقته بنظرة مصحوبة بابتسامة، اقترب مني وقال لي بهمس:

_وحشتيني.

كنت أحمل فنجاناً من النسكافيه، ارتعشت يدي ووقع القليل منه بصورة لفتت نظر صديقاتي المنهمكين في الحديث، أول مرة في حياتي أسمع مثل هذه الكلمة، احمرَّ وجهي خجلا.
انتهي ذلك اليوم الجميل ولم أنطق بكلمة بعد كلمته.

لا أعرف كيف تعلقت بـ عُمر بهذه السرعة، ولهذه الدرجة، مر أسبوعان على معرفتي به، اقتربنا من بعض أكثر، زادت اتصالاتنا، كان يتصل بي مرة في اليوم ثم مرتين ثم ثلاث مرات حتى أصبحتْ أكثر من خمس مرات، أراه يوميًا عدا أيام الإجازة الرسمية.
وبدأ يظهر عليَّ وعليه أننا تعلقنا ببعض، ودائما اجد اصدقائنا يفسحون لنا مكانا وحدنا، غمرني هو باهتمامه وخوفه وقلقه عليَّ، غمرني بكلماته الدافئة.

في أوائل مارس كنا نتحدث كعادتنا في الهاتف قبل النوم، قال لي إنه يريد أن يجلس معي بمفردنا خارج الجامعة ليخبرني بشيء مهم، وافقته.
في اليوم التالي أخبرت صديقاتي بالأمر وأنني سأتقابل معه خارج الجامعة، ذهبت وجالسنا معا في الكافيتريا المجاورة للجامعة، كنت في منتهى التوتر.
جلس بجانبي وهو يتأملني بصمتٍ، نظرت له مبتسمة وكأنني أسأله عن الشيء الذي يريد أن يخبرني به:

_أولا وحشتيني جدا، ثانيا أنتِ أكيد عارفه إيه الحاجة اللي عايز أقولك عليها.
_لا معنديش فكرة.
_ممم يعني أنتِ مش واخدة بالك من أي حاجه؟
_حاجه؟ حاجه زي إيه؟
_حنان أنا بحبك.

توقف كل شيء من حولي، لا أعلم ما الذي كان يجب على فعله في ذلك الوقت، أراهن وقتها أنه لم يكن هناك شخص أسعد مني في هذا العالم، لم أرد عليه بشيء لكن صمتي عبر عن الكثير.
قابلت صديقاتي وأخبرتهم والفرحة تملأني، كنت أريد احتضان الكون من حولي.

ارتبطت أنا وعُمر، وكل يوم يزيد ذلك الرباط متانة، أصبحت لا أرى غيره ولا أريد غيره، لا أعرف كيف أصف طريقته معي وتعامله معي، وأنا معه لم أكن أشعر بالوحدة التي كنت أشعر بها من قبل.

مر شهران على ارتباطي بعُمر، كنا نتحدث باستمرار، ولم نتقابل كل يوم بسبب انشغاله بالتمرينات الخاصة به، كنت لا أعرف كيف أتعامل معه؟ كيف تسير علاقة أي اثنين بينهم علاقة حب، لا أعرف كيف أدلل عُمر !ماذا أفعل ليحبني أكثر، يقول لي دائما " بحبك " وأنا أخجل وأكتفي بالصمت.

لا أنكر أنني أعشقه عندما يقول لي " حبيبتي " أحسُّ بالضعف حين أسمع تلك الكلمة.

أحببته ... نعم أحببته، تتسارع دقات قلبي حين أرى اسمه على شاشة هاتفي، عندما أسمع ضحكاته وكأن الحياة تعزف لي لحنا شجيا، أذوب فيه عشقا عندما يناديني بـ " حبيبتي وروح قلبي وحياتي."

أعترف بجرأته الواضحة، كانت تضايُقني دائما، أخجل منه عندما يقول لي " هاتي بوسة " يحمر وجهي وأتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني، كنت أرى عينيه تتفحص كل مكان بجسدي، أو جسد أي فتاة أخري تمر من أمامه.

أحب كل شيء به، إلا شيئا واحدا " جَرأته " كنت أكره فيه هذه الصفة، وعندما أتشاجر معه وأخبره بأنني لا أحب هذا المزاح السخيف، كان رده الدائم:

_في إيه يا بنتي هو أنا قُلت حاجة غلط؟؟ أنتِ فعلا مُعقدة.

يغضب مني ويُغير نبرة صوته، وينهي المكالمة بأي حجة.

قليلًا ما كنا نتقابل في الجامعة ونجلس معًا مع صديقاتي، كنا غالبًا ما نجلس في الكافيتريا المجاورة للجامعة، وفي يوم أخبرني من أنه ملَّ من هذا المكان وطلب مني أن نذهب إلى مكان آخر لكنني كنت أرفض لأنني لا أريد أن أكون معه في سيارته بمفردنا.

_ماله المكان بس؟

_ماله إيه؟ أنا من ساعة ما عرفتك باجي هنا، إيه المشكلة لما نروح المهندسين أو الدقي؟

_ماشي أنا ممكن أقول للبنات ونروح مع بعض.

_بنات ؟؟ ليه؟ هما دول المحرم بتوعك ولا إيه ؟؟ خلاص يا حنان إنسي إني قلت حاجه؟

صَمت، ولم تمر دقائق وقال لي أنه مضطر أن يغادرني، لم أقل له شيئا وعدت إلى الجامعة. لم يتصل بي طوال اليوم، قمت أنا بالاتصال به.

_آلو.

_إزيك يا عُمر؟ امال أنت مكلمتنيش خالص.

_عادي يعني.

_أنا عارفه إنك زعلت، بس انا مقصدش اللي فهمته.

_خلاص يا حنان حصل خير، مش مهم.

_لا مهم، مهم أنك متزعلش.

_أنتِ بتخافي مني وبتخافي تركبي معايا العربية، يبأه إزاي بتحبيني، اللي بيحب حد ما يخافشي منه، ده بالعكس بيكون مبسوط وهو معاه.

_انا مقصدش كدا، أنا بس خايفة أتأخر على البيت، ما أنت فاهم.

_وأنا أكيد مش هأخرك وعامل حسابي إنى هرجعك لصحابك تمشي معاهم.

_خلاص متزعلش بأه، بكره نروح في أي مكان تاني.

لم أستطع أن أكمل يومي بدون صوته، كيف لا أسمعه يقول" حبيبتي "أدمنته تمامًا، لا أتخيَّل يومي بدونه، حاولت أن أقنع نفسي بكلامه، حاولت أن أجد أكثر من مبرر لأركب معه سيارته وأرافقه إلى مكان آخر.

في اليوم التالي، أخبرت صديقاتي بأن عُمر سيأخذني الي مكان آخر لمجرد التغير، رأيت في عيونهم نظره دهشة، لكنهم صمتوا.
مر عليَّ عُمر، وركبت بجواره في السيارة، لم أنكر سعادتي المصحوبة بالقلق والخوف، وجدت نفسي دون تفكير أخبره؛

_أنت عارف إنى أول مرة أعمل كدا.

_كدا اللي هو ايه؟

_أنى أركب مع حد العربية وأخرج معاه.

_عارف طبعا وإن شاء الله يكون أول وآخر واحد.

كان عُمر شابًا ذكيًا، رده عليَّ كان بمثابة بث الطمأنينة في قلبي، سعدت جدا بهذه الجملة، وكانت أكبر مبرر لأفعل معه أي شيء .. جميل أن يكون الحب الأول هو الحب الأخير.

كنت سعيدة جدًا، أنظر إليه وهو يقود السيارة، وأسرح فيه، بكل لحظة تمر وانا معه اتمني أن أقول له " أحبك، أعشقك، أدمنك "لكن خجلي لم يسمح لي.
لم نتحدث كثيرا، لكنى قلت له أين سنجلس؟ قال إنني سأعرف بعد قليل.

بعد دقائق وقفت السيارة في مكان هادئ جدا، يشبه المقطم، سألته قال بإننا سنجلس هنا قليلا لنتحدث بعيدًا عن الناس، خفت قليلا وتذكرت كلماته بأنني لا يجب أن أخاف منه.

_هاتي ايدك ؟؟

_ليه؟

_هقرا لك الكف.

_لا مش عاوزة.

مد يده بهدوء ومسك يدي، كانت يدي ترتعش وباردة كثلج، همس لي سائلا " بتحبيني"؟
صمت قليلا وقولت له " أه"، اقترب مني أكثر وقال لي:

_أنا مش بحبك، أنا بموت فيكِ، بعشقك، بحب كل حاجه فيكِ.

كان يقترب مني أكثر، حتى شعرت بأنفاسه تلفح وجهي، ابتعدت قليلا، وسحبت يدي وأخبرته بأنني أريد أن أعود للجامعة؛ لأنني تأخرت على صديقاتي، رفض وقال لي بأن صديقاتي لم يتصلوا بي، كان يقترب مني وهو يتحدث، وضع يده على وجهي ليقبلني، أبعدته عني وقلت بصوت حاد وعنيف:

_أنت إيه اللي بتعلمه ده؟ أنا عايزه أرجع الجامعة، رجعني لو سمحت.

لم يقل شيئا بل نظر إليَّ فقط وأدار سيارته متجها بي إلى الجامعة، كانت أول مرة يرتفع فيها صوتي أمامه، شعرت بالذنب ولُمت نفسي على ما فعلت، كنت أرغب في الاعتذار لكني تراجعت.

حالة من الصمت خيمت علينا، لكن " كاسيت " السيارة كان يبدد هذا الصمت، صوت محمد منير يلطف الأجواء، يعشق عُمر منير مثلي .. لكن صمته ظل طوال الطريق وأنا أفكر ماذا سيكون رد فعله؟ !تمنيت أن يمر ذلك الموقف كأي مشكلة عادية.
وصلنا إلى الجامعة، نظرت إليه ولا أعرف ماذا أقول، لاحقني هو وقال مع السلامة، وأدار وجهه عني، نزلت من سيارته وعبرت الطريق لأستقل أول مترو كي أرجع إلى البيت، لم أستطيع أن أنتظر صديقاتي، أرسلت لإحداهن رسالة لتخبرهن بعدم انتظاري.

كعادته عندما يغضب، لم يتصل بي، وأنا أيضا لم أرغب بالاتصال به؛ لأنه من الطبيعي بأنني أنا التي يجب أن تأخذ موقف بعد تصرفه الأخير معي، وأنه هو الذي يجب أن يتصل ليعتذر ، كنت أقول لنفسي هذه الكلمات ولم تدخل حيز قناعتي.
مر اليوم وأنا لم أهدأ لحظه، حتى جاء وقت النوم، حاولت أن أنام لكنني لم أستطيع، أمسكت هاتفي وكل مرة أقوم بالاتصال به أغلق الخط سريعا، حتى قررت أن أتكلم وكأن شيئًا لم يكن، لكني وجدت الهاتف غير متاح، لم أشعر بنفسي، احتضنت وسادتي وبكيت، قلبي ارتعش خوفا، هل سيتركني ويرحل؟ لا لا أستطيع، لا يمكن تحمل رحيله عني.
ظللت طوال الليل أحاول الاتصال علي أمل أن أجده، أنام لحظات ثم أستيقظ لأعاود المحاولة،حتى جاء موعد ذهابي للجامعة، تقابلت مع صديقاتي وكان وجهي شاحبًا مثيرًا للتساؤل، أخبرت صديقاتي بأنه حدث بيننا خلافا بالأمس وأنه أغلق هاتفه، حاولوا تهدئتي، وأنا أعاود الاتصال به.

في الثانية ظهرًا رن هاتفه، تأخر في الرد على غير عادته، لكنني فرحت عندما سمعت صوته وكأن الحياة عادت إلى جسدي الميت، لم أكن أعلم بماذا أرد وماذا أقول، سألته لماذا أغلق هاتفه
وأجاب بأنه كان لا يريد أن يتكلم مع أحد، حاولت أن أصالحه بطريقة غير مباشرة، قام هو بلومي علي ما فعلت، أكد لي أنه نادم على فعلته، أقسم أنه لم يقصد شيئا غير أن حبه لي جعله يريد أن يتقرب إليَّ أكثر، وأنه لم يتوقع رد فعلي، اعتذر لي واتهمني بأنني لا أحبه .

كمشهد من أشهر مشاهد أفلام السينما المصرية، نفس الموقف، نفس الظروف، نفس القصة، حتى نفس الحوار، وكأنني بنفس غباء البطلة المضحوك عليها في هذه الأفلام.
أتعجب عندما أجد البطلة تصدق حبيبها البطل بعد ما دار بينهما، كنت أقول في قرارة نفسي بمنتهي السخرية " أفلام مصرية! "

انتهى حواري، وأنا أحاول نفي اتهامه بأنني لا أحبه، حاولت الاعتذار، وتبرير فعلي بكلمات غير مفهومه، هدأ قليلًا وقال لي" حصل خير"، وتكلم معي بطريقته المعهودة.
مرت ثلاثة أيام على لقائنا الماضي، وعادت الأمور إلى مجراها، كنت أموت شوقا له وأتمنى رؤيته، لكني كنت أخشى أن يحدث ما حدث قبلًا ونتشاجر، فأنا لا أتحمل خصامه.

بعد أسبوع جاء إلى الجامعة وجلس معي انا وصديقاتي، وبعد ساعة عرض عليَّ أن نخرج للغداء أنا وهو فقط، أخبرته إنني لست جائعة، خوفا من انفرادنا معا، لكنه أصر.

ذهبنا فعلا إلي أحد المطاعم بالمهندسين، تناولنا الطعام، كنا نتحدث عن أشياء مختلفة، لكنه من وقت لأخر يتحدث في أشياء خادشه لحياء اي بنت:

_أنتي عارفه إيه أكتر حاجه بحبها فيكِ؟

قلت مبتسمة، ايه بأه ؟؟

_صدرك.

انتفضت على مقعدي وانزعجت جدا وقلت بصوت عالي وأنا أضم معطفي عليَّ في محاولة مني لإخفاء معالم جسدي عنه؛

_انت إيه اللي بتقوله ده ؟؟

لم أكن أعلم لماذا أحببته؟ ما الذي جذبني إليه؟ لم أشعر يوما بحبه لي، بخوفه عليَّ، بغيرته، باهتمامه، كنا نتحدث باستمرار، لم يخطر علي باله ولو لمرة أن يسألني عن يومي كيف مر، أو ينتقد ملابسي مثلًا، أو حتى شعوره بالغيرة من أصدقائي الشباب في الجامعة، لم يسألني عن اهتماماتي وميولي، أو عن مطربي المفضل، كان شغله الشاغل أن يتكلم فقط عن نفسه و نزواته وعلاقاته النسائية التي تثير الغثيان، كان يتحدث عن جمال جسد " هيفاء وهبي " ورقص "دينا " السكسي، وعن قُبله " منة شلبي" الساخنة في فيلم " الساحر " عن أحلامه بإغلاق باب واحد علينا ليفعل بي ما يحلو له، كنت أسمعه بصمت أحيانا، وأحيانًا أخرى بانزعاج صادق، أغلق المكالمة تارة، او أُغير الحديث تارة أخرى.
لم يتحدث عن ترتيباته كي نبقي معا للأبد، او حتي عن انتظاره ليوم زواجنا.

مر هذا اليوم وأنا ابتلع كل كلماته ونظراته المستفزة كي لا نتشاجر أو حتى لا يتهمني بأنني مُعقدة، لم أشعر يوما بأنني أحتاج لطبيب نفسي مثلما كان يتهمني بهذا، لم أشعر بأن تحفُظي معه ومحافظتي على نفسي مرض أو عقدة نفسية.
أربعة أشهر مرت عليَّ ارتباطي به، استمر الوضع مثلما كان، لم يتغير به شيء، مغامراته معي والتي دائما ما تنتهي بشجار وخصام، لم يمل من تجاربه معي كي أخضع لرغباته، وأنا لم أمل من عدم استجابتي، كنا كقط وفأر.

****

في الثلاثين من مايو كان امتحان المادة الثانية من امتحانات آخر العام، لم أجد حجة مقنعة لأخرج وأقابله، وفي هذا اليوم طلب مني أن يمر بعد انتهاء الامتحان كي يراني، انتظرني خارج الجامعة في سيارته.
ظل يدللني طوال الطريق بعبارات الحب والاشتياق المختلفة، أوقف السيارة في منطقه هادئة في أحد المناطق السكنية، سألته عن سبب وقوفه في هذا المكان، أشار بأصبعه علي إحدى

العمارات وأخبرني أنها شقته، اشتراها السنة الماضية، ويريد أن يأخذ رأيي في تصميماتها وألوان الدهان،نظرت له نظرة عنيفة، وأجبت بالنفي، حاول إقناعي بكل الطرق، باستخدام أسلوب الاستعطاف باسم الحب تارة، وأسلوب العنف والصوت العالي تارة أخرى.
ظللنا هكذا لدقائق في محاولات منه لإقناعي، اتهمني بأنني لا أحبه ولا أثق به:

_أنت اللي مش بتحبني، أنت لو بتحبني كنت خفت على زعلى ومتعملش الحاجات اللي أنا مش بحبها، أنت شايفني زي البنات اللي أنت عرفتهم؟؟ لو أنت شايفني كدا، فأنا غير كل البنات دي.

لاحقني برده على كلامي بمنتهي الحدة التي لم أرها من قبل:

_هو أنا كل ما أكلم واحدة تقولي أنا غير كل البنات اللي أنت عرفتهم،وفي الأخر بتطلع ألعن من اللي قبلها!!

لم أصدق كلماته، وجها آخر، صوتا مختلف، شخص لم أعرفه من قبل، صادمني بكلامه وكأنه صب على رأسي ماءً مثلجا، نظرت له بمنتهي الحسرة وقلة الحيلة وامتلأت عيناي بالدموع، لم أشعر بنفسي غير أنني فتحت باب سيارته ونزلت منها، لم يمسك يدي كي لا أرحل، لم يسأل حتى إلى أين سأذهب، تركني تائهة لا تعرف أين هي وكيف تعود.
مشيت مسرعة وأشرت لتاكسي، وطلبت منه أن اذهب لجامعة القاهرة، طوال الطريق وأنا أفكر بما حدث، وتسقط دمعاتي في صمت.
وصلت أمام الجامعة، رفضت أن أدخل لصديقاتي أو حتى مهاتفتهم، ركبت المترو للعودة إلى البيت، انتظرت مكالمة منه، انتظرته كي يعتذر عما بدر منه لكن انتظاري طال.

في الخامسة مساءً رن هاتفي، تمنيت أن يكون عُمر المتصل، كانت شيرين هي المتصلة، وكأنها تشعر بي وبألمي، سألتني ماذا بي، ولماذا لم أتصل بهم بعد انتهاء لقائي مع عُمر.

كنت أحتاج لأخرج ما بداخلي، بكيت لها وأخبرتها بما حدث، كان ردها عليّ حاداً وذكرتني بكلامها السابق معي وتحذيرها لي، كنت استمع وأبكي وأسألها ما الذي يجب عليَّ فعله، أخبرتني بأنه يجب عليَّ عدم الاتصال به نهائيا، وأنتظر اعتذاره لي؛ حتى يتأكد أنني غير كل البنات وانه أخطأ في حقي، وعدتها بأنني سأفعل.

مر عليَّ ذلك الليل بمنتهى القسوة، انتظرته بلهفة حقيقية، ولم يجئ، أتنقل بنظراتي ما بين الهاتف وجدران حجرتي، لكنه لم يتصل، حاولت أن أغمض عينيّ لأرتاح وأنام وأنهض لأستقبل يومي الجديد بنشاط وراحة، كي أمهد نفسي لاستقبال مادتي القادمة، عيناي تغفلان وأراه في أحلامي، كنت أتخيل أنه موقف مثل كل المواقف السابقة، سيغضب مني ويخاصمني ثم يعود يضحك لي مجددا وتضحك لي الحياة بضحكته.

مرت أربعةُ أيام على خصامنا ولم يتصل بي أو يرسل رسالة، كنت في حاله لا أُحسد عليها، لا أستطيع النوم ولا المذاكرة، كل ساعة تمر أخشى فراقه، كل يوم تكبر دائرة الشك بداخلي على قراره بالرحيل، أخشى أن تكون هذه هي اللحظات الأخيرة وأن قصتي معه تحتضر.
صديقاتي حاولن التخفيف عني والشد من أزري، ويقلن لي:
"أنتِ لازم تركزي في الامتحانات،إياك تكلميه وتعبريه، سبيه هو لو عايز يتصل كان اتصل، سيبك منه هو أصلا ما كانش بيحبك!!! "
كلمات لا تفيد ولا تُريح، كلمات لم تجعلني أفقد الأمل فيه ولا حتى أن أفي بوعدي لهم بعدم اتصالي به.

لم أستطيع أن أقاوم صوت حبه بداخلي، لم أتمكن أن أقوى على هزيمة اشتياقي له، كنت أضع الهاتف وأسمع أغنية " حكايتي مع الزمان " بصوت منير، لم أتردد لحظة في إمساك هاتفي لاتصل به .
كانت الساعة الواحدة صباحا .. رن هاتفه وجدته على خاصية الانتظار، فارت براكين الغيرة والشك بداخلي، كنت أتصل به دون انقطاع بين الاتصال والآخر، وفي الاتصال الخامس قام

برفض المكالمة، زادت حالتي سوءًا، لم أفهم ما الذي ينتويه؟ أقول لنفسي لا، سيعود، إنه يحبني، لا لم تنتهِ قصتنا، لن يتركني، لن يتركني أموت، فأنا أموت بدونه .. كنت أخرس كل صوت يقول لي أنه ملني وأنه سيرحل، لا أستطيع أن أصدق، أطمئن نفسي بأنه فقط خصام، لكنه خصام طويل هذه المرة.

استمريت في محاولات الاتصال، كنت أجده في حالة انتظار، وبعد ساعة تقريبا قام بغلق هاتفه، لم تر عيني النوم هذه الليلة، ظللت طوال الليل أحاول الاتصال دون جدوى.

مر أسبوع على هذا الحال، كنت أتصل به يوميا، إما عدم الرد أو رفض مكالمتي، ودائما ما أجده على خاصية الانتظار، وقبل نومه يغلق هاتفه كي يرتاح من اتصالي الدائم.

كيف تركني هكذا؟ كيف تركني أعيش مثل هذه الظروف وقت الامتحانات؟ لم أستطيع أن استيعاب حرفا واحدا أثناء المذاكرة، كلمات صديقاتي لم تخفف عني شيئا، لولا شيرين هدأتني قليلا عندما قالت لي إنها ستأتيني غدا لنذاكر معًا وستتصل به من هاتفها.

****

كان نهار يوم الجمعة، جاءت شيرين وكنت أنتظرها بلهفة، أخذت شيرين تعطيني النصائح في حال رد عليَّ، لابد أن أتماسك وأسأله بمنتهي الثبات، ماذا به، ولا أظهر له ضعفي أبدا، كلمات كثيرة قالتها لي، لم أسمعها جيدا فوجيب قلبي يحجب عني سماع أي شئ، لم أفكر في شيء سوي أن يسامحني وتعود المياه لمجراها:

_أيوه يا شيرين.

_لا أنا مش شيرين.

_أيوه يا حنان .خير ؟؟

_اتصلت بيك كتير أوي، ممكن أعرف أنت مبتردش عليا ليه؟

_ ميتهيألي إنه لو كان عيل صغير كان فهم، بتتصلي كتير جدا ويا إما مردش يا اما بكنسلك يا اما بقفل تليفوني وخنقتيني بجد، كل دا مفهمتيش!!

_أفهم ايه ؟؟

_تفهمي إن موضوعنا خلص خلاص وكل واحد راح لحاله، فنيتو يعني.

_ليه؟ هو أنا كنت عملت ايه؟

_معملتيش حاجه يا ستي بس أنا اتخنقت ومش عايز أكمل.

_وأنا أعمل ايه؟ أنا بحبك ومش هقدر.

_والله بأه أنا بقولك أهو اكرهيني،أقولك، ادعي عليا، بس لو سمحتي ترحمي أمي من زنك ده ومتتصليش بيا تاني من فضلك.

أغلق الهاتف في وجهي، بكيت بصوت عال، واحتضنتني شيرين متسائلة ما الذي حدث، لم أستوعب كل ما حدث، كنت أقول لشيرين بأنه يمزح معي، وأنه اتفق معها من باب المرح، حاولت تهدئتي وحاولت بالفعل كي لا يشعر أحدا من أهلي.
توسلت إلى شيرين كي تتصل به وترجوه أن يعود إلى، أن تؤثر عليه ليعدل عن قراره، لكنها رفضت وحاولت إقناعي بأنه لا يستحق، ويجب أن أحافظ على كرامتي ولا أفكر أن أتصل به مرة أخرى.

كيف فعل كل هذا، وكلمة أحبك التي كان يقولها في كل لحظه؟ كيف تركني هكذا؟ كيف أخذ قرار رحيله دون أن يعود لي؟ كيف قرر أن ينهي علاقتنا ولم يفكر بي؟كيف تخلي عني في امتحاناتي؟؟ تركني وعلامات الاستفهام تخايلني، من أين جاء بهذه القسوة !شعور مؤلم أن

أكتشف مؤخرًا بأنني كنت مجرد نزوة عابرة، مجرد جسد أعجبه فقط، مميت أن اكتشف إنني كنت مجرد " تسليه."

ظلت شيرين معي حتى المغرب، فعلت معي كل ما يمكن أن يفعل، رحلت هي، وكنا علي وعد بأنني سأضع كل شيء جانبا وأحاول أن أجمع شتات ذاكرتي لأكتب جيدا في الامتحان.

كيف تخيلت شيرين بأنني سأفي بوعدي وأنسي وأركز في امتحان الغد؟ لا يمكن أن أتخيل ما حدث، لم يكن لدي مقدرة أن أتخيل حياتي بدونه، ارتعش كلما تخيلت بأنني سأعود للوحدة والعزلة مرة أخرى، احتضنت وسادتي بقوة كي أكتم صوت بكائي فيها، ظللت هكذا طوال الليل، أنظر إلى هاتفي علي أمل، أخبر نفسي من حين لآخر بأنه سيكلمني، سيغلبه الشوق ويتصل، سيرتعش اسمه وسط أنوار الهاتف ويتلألأ.
كم تمنيت أن اقتل ذلك الصوت الذي يمنحني بارقة الأمل، كلما يحدثني ذلك الصوت كلما انتظرته أكثر، أحببته كثيرا، كيف عليَّ أن أقبل رحيله ومعه تعلمت كل شيء، وحده من علمني كيف يكون الحب، كيف يكون الاشتياق واللهفة، علمني كيف يكون الغفران.
كنت معه كطفل يتعلم المشي، أحببته لدرجة جعلتني أسامحه في كل مرة يخطئ في حقي، كنت ألتمس له ألف عُذر على أفعاله، كيف كنت أصدق حديثه معي وأكاذيبه وأقنع نفسي بها كي أظل معه، كنت أشعر بأنه سيكون خطيبي في يوم من الأيام، لكني أغمض عيني وكأنه حلم لا أريد أن ينتهي.

مرت دقائق الليل طويلة أكثر من أي مرة سابقة، ظللت هكذا أبكي تارة، وأنتظره تارةً أخرى حتى أذان الفجر، لا أجد شيئًا يخفف عن ألمي سوى سجودي بين يدي الخالق العظيم، سألت الله أن يخفف عني، قمت وتوضأت، ثم وقفت لأصلي، مع أول نُطقي حروف الفاتحة، بكيت بوجع، ظللت ابكي وأترجَّى الله أن يُريح قلبي ويشفي جرحي.
ذهبت للنوم علي أمل أن أغفل الساعات القليلة المتبقية على الامتحان، كنت أتمنى أن أستيقظ لأجد كل ما حدث كان كابوسًا وانتهى، وسأجده يتصل بي لأكون أنا أول من يسمع صوته.

أتذكر جيدًا أول" علقة "مبرحه أخذتها بحياتي، كنت في التاسعة من عمري، سمعت ضجيجا عاليًا وانا بغرفتي، خرجت لأرى ما يحدث، وجدت شجارًا عنيفا بين أبي وأمي، أنظر إليهما من بعيد وأرتجف، أخي ظل يبكي بصوت عال.

حتى تصاعد الشجار وأخذتْ أمي أخي وحقيبة يدها واتجهت إلى باب الشقة، جريت وراءها لتأخذني أنا أيضا، لكنها ألقت بي بعيدا، دون سبب، وإلى الآن لا أعرف لما فعلت هذا.

ركضت نحوها مرة أخرى وأنا أبكي، أتوسل إليها بألا تتركني، لكنها دفعتني وذهبت.

نظرت إليها من شرفتي وأنا أصرخ " يا ماما، يا ماما."

انتفضت من صوت أبي العنيف وهو يقول لي" اخرسي مش عايز أسمع صوتك "بكيت، فقدت السيطرة على نفسي، حذرني مرتين أن أصمت، لكني لم أستطع ..

لم أستطع يا أبي ، لم أستطع.

لم يتفهم مشاعري، وكأن به بركان انفجر، انقض عليَّ واستمرَّ يضربني بلا رحمة، وأنا أتلوى من الألم، أحتضن جسدي الصغير في محاولة لتفادي الضربات .. أتذكر كل صفعة، وكل ضربة، وكل الأماكن التي آلمتني بجسدي..

بتلك الصرخات التي خرجت من اعماقي .. وتلك القسوة التي غزت ملامح أبي هذا اليوم، بذلك الألم الذي استراح تماما لسكن جسدي .. بذلك الجرح الذي خدش روحي، المسافة أصبحت مسافات ومسافات بيني وبين أبي ..

لا أعرف لماذا دائما تطفو تلك الذكريات على سطح روحي، الجرح الذي أغلقته لسنوات طويلة رائحته تغمرني يومًا بعد يوم، تراكمات كثيرة كوَّنت رؤيتي له، لا أعرف إن كنت أحبه أم لا.

أبي الذي لا أحمل له ذكرى واحدة سعيدة، لا أحتفظ بصورة له وهو يحتضنني، أو يضع يده علي كتفي، ثمانية وعشرون عاما وأنا لا أتذكر له يوما احتضني به .. لا أعلم أأضحك أم أبكي؟ كل هذه الأعوام من عمري لم أتذوق" البيت " الكبير المسمى بالحضن الأبوي، مفارقة لا مثيل لها، أعلم .. أبي وأبعد عني من الغريب ذاته.

أخبرت نفسي ذات يوم، بأنه سيحتضنني عاجلا أم آجلا، كيف؟ بعد كل هذه السنوات هل سيبقى له معني !لا فلم يحدث أصلا، نحن غرباء، نعيش بجدران مشتركه، لكننا غرباء..

لا أعرف الذنب الذي اقترفته لكي أكون هكذا، منبوذة بهذا الشكل ! حتى أمي لم تحتضنني أبدا، مثلها مثل أبي .. على عكس أخي، الذي ما زل إلى الآن يُدلل، أري دائما آيادي الاحتواء والعطف تلتف حوله اينما كان..

يتوهموا أن البنت لا يجوز لها أن تعرف العطف والحنان والدفء .. اتسآئل كل لحظة، أي معتقدات هذه!، من الذي شرع لهم كل هذه القسوة ! كدين آخر يعتنقونه ويؤمنون برسالته، الله قال إنه أحن على الوالدة بولدها، الله خلق الرحمة وجعلها بيننا نعمة مستدامة، لماذا ينكروا نعمة الله؟

بكل وقت مر عليٌ وانا معهم، أقول لهم بكلمات ما بين السطور، إن كنتم تحبونني، فأخرجوا مشاعر الحب إليَّ، أخرجوا حبكم هذا، من قال ان هذا ضعف أو خطأ؟

كيف يكون الحب عار وخطيئة تخفوها، بينما تتباهوا بقلوبكم الجافة عديمة الرحمة!

****

استيقظت علي صوت أمي وهي تنادي عليَّ لألحق بالامتحان، نظرت لها بعمق، كم تمنيت أن أرتمي بحضنها وأبثها شكواي، أحكي لها خيبتي، أسألها أن تسمح لي أن أتغيب عن الامتحان، أجد يدها تحتضنني وتمسح دمعاتي، تمنيت، لكني تعودت علي القسوة منها ايضا.
نظرت إلى هاتفي علي أمل أن أجد منه اتصالا لكني لم أجد، ذهبت لآخذ حماما دافئًا.

بعد دقائق رن هاتفي، انتفضت مسرعة اليه، كانت شيرين تتصل بي لتطمئن عليَّ وتخبرني بأننا سنتقابل بعد ربع ساعة أمام محطة المترو كالمعتاد.

لا أعرف ماذا ارتديت ولم أنظر إلى المرآة حتي، لا أعلم ما الذي سأفعله في الامتحان وأنا لا أفقه شيئا ولن أتذكر شيئا، ورغم كل هذا لا أستطيع أن أتغيب بسبب أهلي.

تبتعد محطة المترو قليلا عني، مشيت في الشارع وكنت أشعر أن كل الناس تنظر إليَّ بعطف، شعرت أن كل من حولي يشمون رائحة جُرحي، وصلت لأصدقائي ولم أنطق بكلمه معهم، وكذلك فعلن هن وكأنهمن لم يجدن كلمات ليقولنها لي، جلست شيرين جانبي وفتحت كتاب المادة، في محاولة منها أن أفهم أيَّ شيء لأكتبه في ورقه الإجابة، بدأت بالشرح لي وأنا أنظر لها أحاول أن أنقذ ما يمكن إنقاذه، ظلت تشرح لي حتى وصل المترو محطة الجامعة.

جلستُ على مقعدي في لجنة الامتحان لثالث مرة، لكن هذه المرة تختلف تمامًا عن المرات السابقة، كنت في السابق أغوص في البهجة، أتابع كل لحظة الوقت المتبقي علي انتهاء امتحاني وأخرج لأتحدث معه، لكني اليوم حزينة، ضعيفة، ومكسورة، مُحبطة، ليس لي أيُّ هدف.

أمسكت ورقة الامتحان وكأنني أرى المادة لأول مرة، حاولت في الدقائق الأولي أن أركز وحاولت أن أتذكر أي شيءٍ، حاولت أن أُحث عقلي على استخراج أي شيء أكتبه، لم أجد سوى كلماته الأخيرة ترن في عقلي مثل الجرس، حتى بدأت الأصوات تقل تدريجيًا من حولي،

تختفي الوجوه عني شيئًا فشيئًا، وتختلط الألوان أمامي، فقدت اتزاني وسقطت من على مقعدي، كانت هذه أول مرة أتعرض فيها لحالة "الإغماء."
لم أشعر بنفسي إلا وأنا مُسجاة بداخل سيارة إسعاف وسط اثنين من الأطباء، لم تتحرك سيارة الإسعاف من أمام لجنة امتحاني، أخبرني أحد الأطباء بأن كل ما حدث هو هبوط بسبب إجهاد أو سهر مع قلة تغذية، أحضروا لي شيئا من مشروب البرتقال ومعه رقائق من البسكويت، حتى أستطيع أن أعود الي امتحاني، أبلغتهم أنني لن أستطيع استكمال الامتحان، حاولوا إقناعي حتى بعمل لجنة خاصة، لكني رفضت وطلبت منهم أن أظل بسيارة الإسعاف حتى ينهي صديقاتي امتحانهن وسأذهب معهن.

****

عندما وجدت رمشًا من رموش عينيه على خده، طلبت منه أن يتمنى أمنية سرًا، وعندما سألته ماذا تمنى قالت تمنيتُ قبلة، كانت كل أحلامه وراءه تتلخص فيما يتعلق برغباته الجنسية، في حين إنني كنت أحلم ببيت يجمعنا، بطفل منه يحمل ملامحنا، إن احتضنه واختبأ فيه، أحببته أنا كما يجب أن يكون الحب.

صديقاتي ظللن بجانبي يساندونني حتى عدت إلى منزلي، أخبرن أهلي بما حدث لي أثناء الامتحان، وكأن ما حدث هو استجابة لدعائي الي الله إن يبقي جانبي، ويكون ما حدث مبررا واضحا وقويا عند رسوبي في المادة.

ذهبت إلى غرفتي، مرتع أحزاني، مستلقية على فراشي أحتضن صديقتي وكاتمة أسراري "وسادتي"، تمنيت أن أتصل به وأحكي له ما بي وأبكي، كنت حقا أشعر بالتعب، أشعر بأن جسدي مُنهك، وأنني على حافة الإعياء.

ارتفعت درجه حرارتي وتمكن الألم مني، غابت ابتسامتي، وأنين الألم سكن جسدي، كم يزيد الوجع كلما تذكرت أنه بعيد، كم تمنيت أن أفقد ذاكرتي وأرحل بعيد عن كل هذه الآلام التي حولي، فقلبي وجسدي يتألمان، حتى اشتد الألم وبدأ النور يتلاشى حولي والوجوه والأصوات بدأت تختفي تدريجيا، حتى غبت عن الوعي، لا أدري للحظات أم لدقائق أم لساعات، ذهبت لعالم آخر، جسد مُستلقٍ وروح هناك في دنيا أخرى تمناها قلبي، نعم رأيته وقتها، رغم تخاريف المرض رأيته، وانا مغلقة العينين وفاقدة الوعي.

جاءني بعدما أخبروه بأنني أتألم، جاء بلهفة وخوف افتقدهما قلبي منه، رأيته بعينيه التي أعرفها، بصوته الذي حفظته، بضحكته التي تعودت عليها، بحنيّته التي أحببتها فيه، أمسك يدي بقوة، قال لي إنه لن يرحل، أخبرني أنه سيبقى جانبي ولن يغيب، طلب مني أن أتعافى كي أجهز لخطبتنا.

لا أعلم كم استغرق من الوقت في هذه الرحلة !ثم بدأ صوته يبعد ولمسة يديه تضاءل قوتها، حتى أفقت، فتحت عينيَّ واستمريت أنظر لكل من حولي وهم يحاولون إفاقتي، أركز في أصواتهم بدقة، أبحث عنه في وجوههم، وأدركت حينها أنني عدت إلى الواقع، وأنَّ كل ما رأيت ما هو إلا أضغاث أحلام.

كأن أبي وأمي وأخي من حولي، ولم يكن هو بينهم، أصروا أن اذهب إلى المستشفى ليعرفوا ما بي، تعكزت عليهم واتجهنا إلى أقرب مستشفى، دخلت الي الاستقبال مباشرةً وقام أحد الأطباء بفحصي، سألني "أنتِ في حد مزعلك؟؟" أجبته بالنفي، سأله أبي ما الذي حدث لي، أخبره الطبيب أن ليس بي اي شئ، فقط هبوط بسبب قلة الأكل.

عدت إلى منزلي بعد أن أخذت جرعة" محلول"، ذهبت إلى غرفتي كي أستريح بعد يوم ضبابي بالكامل، لم أستطيع النوم برغم أنني كنت منهكة، يقتلني قلبي كلما تذكرت أننا افترقنا.

اتصلتْ بي شيرين بعد ساعة من رجوعي للمنزل، سألتها إن كان عُمر اتصل بها ليسأل عني، أخبرتني بعدم اتصاله نهائيًا، وقالت لي إنه يجب عليَّ نسيانه فهو لن يعود أبدًا وأنه لا يضعني في قائمة اهتماماته، ونبهتني بمنتهي الحدة بأنني كدت أموت من أجل شخص لا يستحق، لا يستحق حتى التعب من أجله، طلبتْ مني أن أهدأ وأن أحاول الحصول علي قسطً من الراحة وطلبت مني أيضًا أن أرمي كل شيء خلف ظهري مؤقتا،حتى ننتهي من امتحاناتنا، أخبرتها بأنني لا أستطيع، حقا لا أستطيع !طلبت منها أن تتصل به وتخبره بما حدث لي، لكنها رفضت بمنتهى الغضب وقالت لي بأنها ستساعدني وتقف بجانبي حتى اجتاز هذه المحنة.

نمت لكي أهرب، رغم انني لا أعلم لماذا عندما نريد ان نهرب منهم إلى النوم نجدهم يختبئون في أحلامنا؟ لا أعرف كم من الوقت مرَّ وأنا نائمة لكنني وطوال وقت نومي كنت أحلم به .. مؤلم أن يكون النوم هو المكان الوحيد الذي أراه فيها بعد ان كان واقعا اعيش به كل لحظة .. مر اليوم سريعًا، في اليوم التالي اجتمعت مع هالة وشيرين ونورهان، قررن بأنهن سيساعدنني لاستذكار المادة القادمة.

كنت أركز معهم لحظة وأفكر به لحظات، حاولن التخفيف عني بالحديث عن مواقف قديمة مضحكة، كنت أضحك بين الحين والآخر لكنها لم تكن ضحكات من القلب، لم أكن أعرف السعادة قبل أن أحبه، وحده فقط من علمني كيف تكون الضحكة من القلب.

بعد مرور أسبوعين على فراقنا،عرفت المعني الحقيقي للفراق، كنت أسمعهم يقولون أن أشد أنواع الفراق هو الموت ، لكن الموت عندما يأخذ أحد يخبر أحبته بمكانه، بينما الذي أبعده القدر أو اختار الفراق بنفسه، يكون وجوده بمثابة سكين توغل فينا، تمزقنا الأسئلة عليه، مع من تحدث؟ أين هو الآن؟ هل أحب بعدنا؟ تزوج؟ يذكُرنا؟

لا أعرف كيف مرت تلك الأيام، حاولت أن أدعي التماسك ولا أجزم بأنني قد نجحت، خوفي من رد فعل أهلي لو رسبت في دراستي جعلني أهتم قليلا بالمذاكرة، كانت هناك رغبة ملحة أن أنجح فقط بعيدًا عن التقديرات.

نعم تعايشت مع الواقع، يومًا بعد يومٍ تنسحب عصارة الأمل من جسدي، ويحل محلها دواء الصبر، وكأنني أتعالج من الإدمان،أحاول بعقلي أن ابغضه، يوم بعد يوم أيقنت بأنه لن يعود.

أصبحت لا انتظره، لا انتفض مسرعة إن رنَّ هاتفي.

وجاء آخر يوم في امتحاناتي، رغم أنني ارتحت كثيرًا من هم امتحاناتي لكنني حزنت أكثر لأنني سأبقى خلال فترة الإجازة الصيفية في بيتي، كان أهلي يعارضون فكرة خروجي مع صاحباتي، فبنات العائلات لا يجوز لهن الخروج وحدهن دون اهلهم.

كنت في طريقي إلى منزلي، أضع سماعات هاتفي وأستمع إلى مطربتي المفضلة" أنغام"؛

"هو أنت ليه سيبتها؟ هو أنت ليه عذبتها؟ مش دي اللي عشقها خيالك وحكيت عنها للناس ! هو أنت ايه اللي جرالك بتبيع وتخون وخلاص" !!

تذكرته لحظتها عندما كان يقول لي " أنتِ شكلك عملتي لي عمل !أنا بقيت بكلم كل صحابي عنك "

كم كنت مخدوعة !كنت غبية !ألوم نفسي كل لحظة على سذاجتي معه، على الرغم من أنني يجب أن أكُفَّ عن تحميل نفسي أكثر من طاقتها، فكل ما حدث كان شيئًا طبيعيًا لشخص معدوم الخبرات العاطفية.

ودعت صديقاتي ووعدنني أنهن سيزورنني من وقت لآخر، رجعت إلي منزلي الكئيب الذي دائما كان وحده كفيل ان يُقلب الماضي والذكريات المؤلمة عليَّ، غرفتي التي شهدت قصة حبي، كل شيء يحكي، هنا على الأريكة كنت أتحدث معه، هناك شرفتي كنت أختبئ بها عندما تعلو ضحكاتي.

كل يوم يمر أتألم فيه أكثر من اليوم السابق، الشعور بالوحدة مُميت، أبي وأمي يذهبان للنوم مبكرًا بسبب عملهما صباحا ، وأخي يجلس في غرفته، كنا قليلا ما نخرج، وكان الخروج من المنزل يقتصر على زيارات عائلية وفي المناسبات فقط.

مرت الأيام سريعًا جدًا، وأصبح بالنسبة لي حلمًا انتهى بين يوم وليلة، كنت أسمع عنه وأحيانا كنت أراه في إحدى المباريات لكره القدم.

****

في أواخر سبتمبر بدأ العام الدراسي الجديد، قررت أن أهتم بهذا العام وخاصة بعد رسوبي في مادتين من العام السابق، كنت أراه في كل مكان بالجامعة، أجده في كل مكان كنا نجلس فيه معا، مر تقريبًا أكثر من ثلاثة أشهر على فراقنا، لكنني حقًا أشتاق إليه يومًا بعد يومٍ.

أتذكر عندما قال" نزار قباني :"إن لم يزدك البعد حبا فأنت لم تحب حقًا.

ادعيت النسيان أمام صديقاتي، حتى أنهنَّ لم يذكرن اسمه أمامي قط.

دائما ما كنا نجلس خارج الجامعة بناءً على رغبتي، حتى الكافيتريا المجاورة للجامعة لم نذهب إليها بعد ما حدث، كنت أحاول الهرب عن أي ذكرى قد تُزيد القلب وجعًا.

أصبحنا نجلس في كافيتريا تبتعد عن الجامعة قليلا وكان تنقصنا نورهان التي ارتبطت بعلاقة عاطفية مع أحد أصدقائنا بالجامعة، كنا نجلس في تلك الكافيتريا يوميا بعد أن نُنهي محاضرة أو محاضرتين.

في منتصف أكتوبر كنا نجلس في تلك الكافيتريا، جاء شخص وجلس أمامنا، أول مره نراه في هذا المكان، لفت نظرنا جدًا منذ دخوله، لوسامته واناقته.
كان يضع نظارة طبية، ويرتدي بدله سوداء، وبجانبه شنطة أوراق صغيرة يبدو أنه يعمل في إحدى الشركات، طوال الوقت كان يتحدث في هاتفه وينظر إلينا، وسامته كانت حقا ملفتة للنظر، ظل يختلس النظر إلينا حتى جاء موعد مغادرتنا الكافيتريا.
كعادة صديقاتي عندما يرون شابًا وسيمًا لا يتوقفن عن الحديث عنه، ولا أنكر بأنه أيضًا لفت نظري واندمجت معهم، خاصة بأن مظهره كان يوحي بالاختلاف عن الشباب الذين نشاهدهم في الجامعة.

في اليوم التالي كنا في طريقنا إلى الكافيتريا بعد أن أنهينا جزءًا من المحاضرات، وجدنا ذلك الشاب يقف أمام باب الكافيتريا ويتحدث في هاتفه، يرتدي بدله مختلفة عن يوم الأمس، لونها رمادي غامق من تحتها قميص أبيض ورابطة عنق سوداء وبها خطوط باللون الرمادي، اندهشنا جميعا أننا وجدناه؛ لأننا لم نكن نتخيل بأننا سنراه مرة أخرى، جلسنا على الطاولة المجاورة له.
أنهى مكالمته الهاتفية وعاد إلى مقعده وأمامه الحاسوب الخاص به، كان ينظر إلينا بطريقة ملفتة للنظر، ولا نعرف من التي استطاعت منا تلفت نظره بهذا الشكل .. ساعة كاملة ظل ينظر إلينا وننظر إليه، ثم طوى الحاسوب وأدخله في حقيبته وغادر بهدوء، قررت هالة أن

تسأل أحد العاملين بالكافيتريا عليه، خاصة أننا أصبحنا على علاقة جيدة بالعاملين هناك، أخبرها بأنه لا يعرفه جيدا وانه تقريبًا يعمل بمكان قريب من هنا لكنه لأنه يأتي ثلاثة أيام فقط في أول الأسبوع، ظللنا نتحدث عنه طوال الطريق، انبهارنا به كان حقيقيا.

في الأسبوع التالي ذهبت انا وصديقاتي لنفس المكان كي نره مجددا ذهبنا، وبالفعل وجدناه هناك وكأنه ينتظرنا، وعندما دخلنا من بابا الكافيتريا نظر إلينا وابتسم، وطوال جلستنا كان ينظر ويبتسم كعادته.

لم نكن نعرف لمن ينظر بالتحديد؟ من التي تعجبه فينا؟ وعلى الرغم من أنه لم يوضِّح أكثر من التي تُعجبه، لكنني كنت أشعر في قرارة نفسي بأنه معجب بي أنا، ليس غرورًا؛ لكنني حقًا كنت أرى بأنني مميزة عن صديقاتي.

****

"بيعدي في حتة أنا قلبي بتكسر 100 حتة، أفضل في مكاني انشالله لـ 6 الصبح بفكر فيه، يقابلني في سكة قُصادي يفوت ببقي أنا على تكه ومش مظبوط حد يقولي أعمل ايه، يحكمني عليه."

أغنية رائعة من روائع المطرب الخليجي" حسين الجسمي " التي اشتهرت في تلك الأيام، اعتدنا أن نغنيها عندما نرى ذلك الشخص الغامض.

ظل الحال على نفس الوتيرة لعدة أيام، وفي يوم رن هاتفي وذهبت للرد خارج الكافيتريا، خرج هو بعدي بدقائق قليلة، التفت حولي وجدته يتحدث أيضا في هاتفه، وبعد دقائق أنهيت مكالمتي واتجهت إلى باب الكافيتريا، وجدته ينظر إليَّ ويبتسم ويقول لي:

_هو انتوا في الجامعة هنا ولا بتشتغلوا قريب من هنا ولا ايه؟

_آه إحنا في الجامعة.

_آها .طيب هو أنتِ اسمك ايه؟

_بتسأل ليه؟

_انا اسمي هيثم علاء وبشتغل مدير في شركة أدوية مقرها قريب من هنا، ممكن أعرف اسمك

_اسمي حنان.

_طيب حنان ممكن اخذ رقمك؟

_رقمي !! ليه طيب ؟؟ لا ماينفعش .آسفة.

_أنا مش قصدي حاجة .طيب أنتِ ممكن تاخدي رقمي وتكلميني في أي وقت.

كنت أري صديقاتي ينظرن إلى عبر زجاج الكافيتريا، وانا في غاية الخجل وأيضا اخبرت نفسي بألا يجب أن تضيع هذه الفرصة، ذلك الشاب حلم حقيقي لأي فتاة، أنا لم أتخيل يوما أنني سأقابل شخص مثله.

حفظت رقمه في هاتفي وودعته، لوح بيده وقال" سأنتظر مكالمتك"، عدت إلى هالة وشيرين اللاتي كن سينفجرن فضولاً لمعرفة ما دار بيننا، طلبت منهن أن نرحل وسنتحدث بعيدًا.

عند خروجنا من الكافيتريا، انقضوا عليَّ لأخبرهم بما حدث، قلت لهم ضاحكة وبمنتهي السعادة،" أخذت رقمه"، وجدتهن في حالة ذهول وكأنهم تمنين أن يكون معجب بأحد منهن.
ظللن يعرضن عليَّ الأسئلة السريعة:
"قالك إنه معجب بيكِ ولا ما قالش حاجه؟ وهتكلميه إنتِ؟."

عدت إلى منزلي وأنا أفكر فيه، استلقيت على سريري ووضعت يديّ خلف رأسي وأنا أسأل نفسي، هل أقوم بالاتصال به أم لا؟ فكرت لحظات قليلة ثم نهضت وسحبت هاتفي واتصلت به، لم أفكر ماذا أقول، ولم أُحضر أي كلمات أبدأ بها حديثي..

_آلو.

_آلو ازيك.

_ازيك يا حنون عاملة ايه؟

صمت قليلا وكنت مندهشة، كأنه كان ينتظر مكالمتي، رده عليَّ بهذه الطريقة اختصر عليَّ مقدمه كنت أمهد لها؛

_كنت عارف أنك هتكلميني.

_وازاي عرفت صوتي؟

_كنت حاسس، .وبعدين أنتِ صوتك مميز جدا.

_طيب أنتَ ليه اديتني رقمك، وكنت عايز تكلمني؟

_بصراحة أنا شوفتك كذا مرة، ومن أول مرة أنا أعجبت بيكِ، وكان نفسي أكلمك.

اطمئن قلبي عندما صرح لي بإعجابه بي وليس بواحدة من صديقاتي، كنت في منتهى سعادتي وكأنه جاء في الوقت المناسب، لا أستطيع أن أقارن بينه وبين " عُمر"، وإن فكرت أن أقارن بينهما فستكون مقارنه سخيفة لا تجوز.
بين هيثم وعُمر فروق لا حصر لها؛ هيثم الرجل العاقل، صوته الواضح القوي، لا يحتاج أن يتحدث بصوت هادئ وناعم ليُثير إعجاب أي فتاة تتحدث معه كما كان يفعل عُمر، لا يحتاج أن يظل يتحدث بالكلمات المعسولة لإيقاع المعجبات به أكثر، رجل جاد لا يُجيد " اللف والدوران .. أخبرني في لحظات قليله من حديثنا أنه معجب بي..

في الخمس دقائق مدة مكالمتي معه، تحدث عن نفسه، أخبرني أنَّ عمره سبعة وعشرون عامًا، وأنه يعمل بأحدى أشهر شركات الأدوية وفرعها قريب من الجامعة، وانه يسكن في المهندسين.
كنت أسرح أثناء حديثه عن نفسه، قلت لنفسي " هذا هو الشخص الذي يستحق أن تحلم به أي فتاة"، وجدت نفسي أتخيله مرتديًا بدلة العرس، رأيت نفسي في بيته، وكان أبا لأبنائي، تخيلت نفسي أمشي معه في كل شارع وأجلس معه في كل الأماكن وأنا فخورة به.
نفضت الأمر عني سريعًا وقلت، لمَ كل هذا !أمن ساعات قليلة حدث كل ذلك؟!

بعد أن أنهى حديثه طلب مني أن أحكي عن نفسي، سألته من أين أبدأ، قال لي إنه يريد أن يعرف كل شيء عني، ما أحب؟ ما أكره؟ أسرتي،عائلتي، أصدقائي، كل شيء .. أخبرني بأنه يريد أن يتقرب مني أكثر.

أصبحنا أصدقاء أو أكثر قليلا، نتحدث كل يوم، أو تقريبا كل وقت، كان يقترب مني كل يوم أكثر من سابقه.

رجل بكل ما تحمله الكلمة من معني، يخشى على مشاعري كثيرًا، ولم يحدث أن حدثني في شيء يثير خجلي، اعتدت على مقابلته في الأيام الثلاثة التي كان يتواجد فيها بالكافيتريا.

في كل مقابلة كان يستقبلني بهدية .. باقة الورد تارة، والعطر تارة، والفضيات تارة أخرى.

أعترف بأنني انبهرت به وأنه في وقت قصير استطاع أن يُلملم جرح الماضي ويداويه.

استطاع أن يجعل قلبي ينبض من جديد ويجعلني أنسى ما مضي.

كنت أستمع لمطربة الإحساس " أنغام " في واحدة من أروع أغانيها" لو أعيش معاك"، كل حرف في الأغنية لمس قلبي، وجدت نفسي أمسك هاتفي وأكتب كلماتها وأرسلها له في رسالة؛

"ياه لو أعيش معاك باقي الحياة وفي حضنك عمري أكمله، يااااااه اهو دا اللي عيشت بتمناه إحساس جديد أنا بعرفه، شايفاك بعنيّا ومن حياتي خدتني، لمساك بإديّا وغصْب عني واحشتني ..مابقاش في غيرك في الحياة بيهمني"

لا أعرف من أين جاءتني تلك الجرأة !ولا أعرف كيف سيستقبل هو رسالتي تلك!

بعد لحظات قليلة جدا من إرسالي الرسالة، وجدت هاتفي يرن باسمه، أسرعت بالرد.

_آلو.

_أنا بحبك يا حنان.

مر شهر على علاقتي بـ هيثم، إحساسي بالسعادة يتعدى حدود الوصف، أحببته من كل قلبي، كنت أنتظر اليومالذي سيجمعني به بكل ترقب، كيف سيستقبلني؟ وله في كل مقابلة استقبال يختلف عن السابق،

حديثه،أناقته، وسامته، هديته لي، كل شيء يختلف.

دائما كان يحدثني عن أمه وأخته وابنتها الصغيرة، كان يشاركني مستقبله، دائما كان يضع حرف النون الذي يجمع بيني وبينه في كل أفكاره،" اتمني شراء منزل في التجمع الخامس سنشتريه معًا، أحلم بالسفر للخارج وسنكون سويا ."كل شيء كنت معه .. دائما يحدثني عن حلمه بزواجنا، وإنجابه أطفالا مني.

أخبرني بأن الذي يعيق خطبتنا هو مرور أخته بمشكلات كبيرة مع زوجها، ولا يجوز أن يتحدث معهم عن موضوع ارتباطه في هذه الظروف.

كان هيثم راقيًا في تعاملاته إلى أبعد الحدود، لم يطلب مني أي شيء يخجلني، كان أقصى شيء يفعله هو قُبله على يدي فقط، مما منحني ذلك الشعور الذي لم أكن أعرفه" .. الأمان. "

في الأيام الأربعة التي لا أراه فيها تكون مكالماتنا الهاتفية قليله جدًا، وعند اتصالي به دائما أجده غير متاح، وعندما سألته عن سبب إغلاقه للهاتف، أخبرني انه يسكن في منطقة تغطيتها ضعيفة تمامًا، فكنت أنتظره ليقوم هو بالاتصال بي عندما يتواجد بمكان تغطيته قوية.

ظللنا هكذا حتى جاء يوم وطلب مني شيئًا لم أكن أتوقعه أبدا .. أخبرني أنه يحبني كثيرًا ولا يستطيع الابتعاد عني، و يخشى أن أضيع من يده، ومع ذلك لا يستطيع التقدم لخطبتي بسبب مشاكله العائلية، كنت أسمعه، وأنا غاية في الترقب .. كلمات مبعثرة يصعب عليَّ تفسيرها،

أنتظر انتهاء حديثه لأفهمه، وبعد موشح طويل من الشرح والتدليل والاستعطاف، قالها لي بمنتهي الوضوح " أنا عايز اتجوزك عرفي لفترة مؤقتة"

نظرت له بعمق وكأنني لا أفهم ماذا يقول، لاحق هو نظراتي المندهشة بكلماته :

_ أنا مش عايزك تفهميني غلط، أنتِ عارفة أنا بحبك أد إيه، لدرجة إني مش عاوز حد ياخدك مني.

_الورقة هتكون معاكِ وبالنسبة للحمل مش هيكون في خالص، فترة مؤقتة وأوعدك بعدها هعملك فرح محصلش.

_إفتكري إنى مش مراهق ومش هتخلى عنك! .....

صمتَ هو ليجد مني أيَّ رد فعل، لكني حينها لم أجد أي رد فعل يعبر عن مدى أسفي سوى أن أستأذن وأرحل.

تركته في الكافيتريا، لم يعترضني، أوقفت أول تاكسي وأخبرتُ السائق عن عنوان بيتي، طوال الطريق أفكر، لمَ فعل هيثم هذا؟ هل يراني رخيصة إلى هذا الحد؟ ثم أعود لأقول لا لا هيثم يُحبني، هو فقط يريد أن يضمن بقائي، هيثم رجل عاقل وليس مراهقًا.

لم يحدثني طوال اليوم، لُمت نفسي على رد فعلي، كان من المفترض أن أرفض وأقدم له مبرراتي وسينتهي الموضوع.

طوال الليل وأنا ألوم نفسي وأفكر ماذا أفعل.

***

في صباح اليوم التالي، استيقظت على رنين هاتفي، نهضت سريعًا متمنيةً أن يكون المتصل هيثم، لكنني وجدت هالة، تخبرني أنها لن تذهب إلى الجامعة اليوم، بعد لحظات قليلة من

حديثنا أغلقت معها ثم قمت بالاتصال بهيثم، وأنا أضع يدي على قلبي خوفاً، من عدم رده، وفي اللحظات الأخيرة من اتصالي وجدته يرد:

_أيوه يا حنان.

_ازيك يا هيثم.

_كويس.

_هيثم أنا كنت عايزه اعتذر لك على اللي حصل مني امبارح

_لا عادي محصلش حاجه

_طيب أنا مش هشوفك؟ انا عايزة اتكلم معاك

_حنان أنا رديت عليكِ عشان عايز أعرف ردك في موضوع امبارح، ومدام اتصلتِ واعتذرتِ يبقي هعمل نفسي نسيت اللي حصل.

_هيثم أنا مستحيل أعمل حاجه زي دي ابدا، أنا مستعدة استني لحد لما أنتَ تخلص مشاكلك، أنا كدا كدا لسه في سنة تانية يعني مافيش حاجه تخليني مستعجلة.

تكلمت كثيرا، كنت أحاول إقناعه بشتى الطرق، صمته هذا طمأنني قليلا، جعلني أشعر أنه يسمعني ويقتنع بمبرراتي، لكنه بعد لحظات قليلة أوقف حديثي قائلا:

_خلاص يا حنان انسي الموضوع، حصل خير

ابتسمت رغم أن صوته لم يكن مطمئنا، لكني أقنعت نفسي أنه فقط غاضبٌ من تصرفي وسيروق، طلب مني أن نُنهي المكالمة، وافقته طالبة منه أن يهدأ وأنا سأعاود الاتصال، أغلقت

المكالمة وأنا سعيدة أنه استوعب موقفي وتجاوزنا هذه المشكلة، نهضت مُسرعة من مكان نومي وأخذت حمامي الدافئ وذهبت للجامعة.

عُدت إلى منزلي في الرابعة عصرًا، وقمت بالاتصال به، لم يرد، كررت الاتصال ثلاث مرات، ولم يجبني أيضًا، قلت لنفسي بأنه مشغول وسيتصل بي بعد انتهائه.
مرت ساعات ولم أجد منه أي اتصال، انتظرت حتى منتصف الليل وقمت بالاتصال به أكثر من خمس مرات متتالية ولم يجب.

طوال الليل أضع أسباب ومبررات لعدم رده، وضعت كل الافتراضات إلا تخليه عني، مر الليل طويلا وأنا أمسك هاتفي في يدي وأنظر إليه وكأني لن أسمع رنينه، كنت أبحلق في هاتفي طوال ساعات الليل الطويلة، فدائمًا دقائق الانتظار تكون طويلة ومُرهقة، أغفو لحظة وأنظر إلى هاتفي لحظات.
غلبني النوم حتى استيقظت على ضوء النهار، كانت الساعة الثامنة، أمسكت هاتفي ونظرت إليه علي أمل أن أجد اتصالًا أو رسالة لكني لم أجد.
قمت بالاتصال به ثلاث مرات ولم يجب أيضًا، أيقظت نورهان لأخبرها بما حدث، اندهشت هي أيضًا على رد فعله وعلي طلب الزواج العرفي، طلبت مني أن أهدأ تمامًا حتى نلتقي ونفكر معًا.

جلست على سريري أنظر إلي الساعة، أنتظر مرور الوقت كي أغادر المنزل وأقابل صديقاتي،لم يكن هناك أي حديث بيننا سوى عن هيثم.
اختلف رأيهن، بين المندهشة، وبين التي تنتظر لمعرفة حجة الغائب، وبين التي لم تطمئن له منذ البداية.

ذهبنا إلي الكافيتريا التي كان يوجد بها باستمرار ولم نجده، جلسنا علي أمل أن يأتي، اقترحت شيرين أن أتصل به من هاتفها، وبالفعل فعلت ذلك، كنت آمل ألا يرد، لكنه فعل. قال " ألو" ، أجبت أنا سريعا:

_هيثم أنت مش بترد عليا ليه؟

وبمجرد سماعه صوتي وجدته يغلق الخط في وجهي.
بين نظرات صديقاتي المليئة بـ ترقب ودهشة، عاودت الاتصال مرة تلو الأخرى ولم يرد.
انهرت باكية، سألت في دهشة:

_سمع صوتي وقفل !يعني هو مش عاوز يكلمني؟

صديقاتي حاولن تهدئتي وطلبن مني أن أصبر اليوم فقط.
بدأت أتجه لمسكنات الصبر والافتراضات الواهية، أقنع نفسي أنه يحبني مجددا.

مرت على هذه الأحداث خمسة أيام، وأنا بين البكاء تارة، والصبر تارة، والاتصال به تارة أخرى، كنت سأقبل أي رحيل سوى تركي بهذه الطريقة المهينة، عقلي رفض أن يصدق معاملتي بهذه الطريقة الجاحدة، سأتقبل أي وضع غير هذا، كيف هنت عليه هكذا؟ كيف هان قلبي عليه؟ أسال نفسي بين الحين والآخر، هل انتهت قصتنا؟ هل عليَّ أن أصدق رحيله؟ أفشل في الرد على نفسي المغلوبة على أمرها، لكني أعاود حقنها بالمسكنات كي أهدأ وأستكين.
ذهبنا إلى الجامعة ودائما كنا نجلس انا و صديقاتي أمام مدرج المحاضرات، وأنا لازلت تحت تخدير مسكنات الصبر، جاءت إحدى زميلات الدراسة لتتكلم معنا، نظرت لي متسائلة:

_أنا كنت بشوفك دايما مع هيثم.

نظرت لها مندهشة وداخلي عشرات الأسئلة، رددت في خوف بنعم، ردت هي مبتسمة:

_أصل أنا أعرفه.

نظرنا لها مترقبين، ثم ردت هالة متسائلة:

_تعرفيه منين؟

_ده جار أختي، ساكن في الشقة اللي تحتها.

وقفت في مكاني، ابتسمت لها وأنا اسألها في خُبث،

_ ياه، سبحان الله ع الصدف، وبتكلموها ازاي يا بنتي دا هما فيش شبكة خالص عندهم.

_شبكة ايه؟ لا الشبكة كويسه وبنكلمها ع طول.

صمت وأنا أنظر إلى صديقاتي ثم عاودت أسئلتي في توتر.

_ازاي؟ ده حتى المطار بيأثر على المكان كله.

_مطار؟ .!مطار ايه؟

_مطار ألماظة، ممكن بأه تكون أختك ساكنة بعيد شويه عن المنطقة دي.

_ألماظة ايه بس؟ أنا أختي مش ساكنه هناك خالص.

_أمال ساكنة فين؟

_في السبتية.

أخذت نفسا عميقا وأنهيت أسئلتي، لم أكن أريد أن أسمع المزيد،استكملت شيرين الحديث معها:

_ ازاي يا بنتي مش بتقولي هيثم جارها؟

_آه ما هيثم ساكن في السبتية بردوا.

قاطعت حديثهما وقد لاحظت معالم التوتر على وجهي:

_أنت بتقولي ايه يا هبة؟ هيثم ساكن في السبتية ازاي؟ ممكن بأه يكون عنده شقتين.

_مش عارفة .ممكن

صمتنا جميعا، وأنا انظر إليها بحذر شديد، أحمل الكثير من الأسئلة لكنني أخشي الإجابات.
سألتها بعد لحظات من صمتنا:

_مين اللي ساكن معاه في شقة السبتية.

نظرت إليَّ، وكأنها قرأت شيئًا من عيني.

_حنان ،ممكن أسألك سؤال؟

_أكيد.

_هو إيه طبيعة العلاقة بينك وبين هيثم؟

ردت نورهان سريعا.

_هيثم صديق، صديقنا كلنا.

نظرت هبة إليَّ مرةً أخري وكأن نورهان أعطتها الضوء الأخضر

_طيب أصدقاء إزاي وماتعرفوش إنه ساكن في السبتية؟

_هبه، ماردتيش على سؤالي هو عايش مع مين في شقة السبتية؟

_مع مراته.

ابتسمت في دهشة .وعاودت سؤالي مجددا،

_ عايش مع مين!!

_ أنتِ متعرفيش انه متجوز كمان؟؟

_لا لا لا إنت اكيد بتتكلمي عن حد تاني غير هيثم.

_لا هو هيثم، إحنا عارفينه من زمان من ساعة ما تجوز من 4 سنين.

_اتجوز مين؟ هيثم مش متجوز.

_لا متجوز والله وعنده بنت اسمها ملك.

وجدتني أغوص في نوبة هستيرية من الضحك، وصديقاتي يتبادلن نظراتهن.

_أنتِ اكيد بتهزري يا هبة.

_لا والله، ولو مش مصدقاني أنا ممكن اخدكو تشوفيه، هو بينزل على الساعة 11 كدا الصبح

وافقتها في تحدٍ لصديقاتي، " أنتِ مجنونة – تروحي فين يا ابنتي – لا طبعا مش هتروحي" صرخت في وجههم ليصمتوا، وهبة تنظر إلينا متعجبة من ردود أفعالنا، نظرت لها نظرة ضعيفة مكسورة، ودموعي تملأ عيني:

_هبة، هيثم مش صديق، أنا بحبه وهو كمان، وأنا أول مرة أسمع الحاجات دي، مش قادرة أصدق غير لما أشوف بعنيا، أرجوكِ ساعديني.

_حاضر يا حنان، تعالي نروح بكرة.

كان يوم" أسود "عليٌ وعلي قلبي، لم أجد له مسمى آخر يليق به .. الحسرة حاوطتني، شعرت أنها تقبض روحي .. أختنقت.

عُدت إلى منزلي، السجن ذي الأسوار العالية، كم أكره ذلك البيت الصغير، كل شيء يتغير إلا هُم، أختنق كل ليلة من الوحدة .. لم يشعروا بي ولا حتى يجوز لي أن أبكي بصوت، مع كل جرح أحتاج إلى حضن يحتوي ألمي، حضن يُلملمني من جديد، حضن يطمئنني، فقط حضن ..مع كل خيبة أحتاج أمًا ،أبًا ،أخًا، أحتاج إلى شخص تجري بعروقه نفس الدماء التي تجري بعروقي، لا أستطيع أن أكتفي بصديقاتي.

أرهقني حزني المكتوم وصراخي غير المسموع إلا لي، ودمعي المسجون، أرهقني حضن وسادتي.

كيف لي أتقبل أن هيثم كاذب، خدعني !كيف لي أن أصدق أنه كان يتسلى بي!

من أين جاء بهذه القسوة؟ لماذا أنا؟ لماذا اختارني انا ليفعل بي كل هذا؟

ما الذي فعلته معه لينتقم مني بهذا الشكل البشع!

حاولت الاتصال به، كنت أتمنى أن يرد، أن يبرئ موقفه، أن يُكذّب كل هذا، كنت مهيأة لتصديقه، لكنه لم يرد.

انكمشت على فراشي من الساعة الخامسة مساءً حتى التاسعة، كنت أدعي النوم، وجدت أمي تفتح باب غرفتي وتُوقظني وتسألني عن سبب نومي هكذا، أخبرتها أنني متعبة فقط.

حاولت أن أخفى معالم حزني، سألتني إن كنت أريد الأكل، أخبرتها أنني أكلت بالجامعة.

اعتدلت وأمسكت بكتاب كأنني أذاكر، انتظرت حلول اليوم التالي حتى أقطع الشك باليقين، لكن هل سأرتاح؟ بقدر ما كنت متلهفة على اكتشاف الأمر بقدر ما كنت حزينة جدا؛ لأنني سأكتشفه، في الأساس كنت أخشى الموقف.

لم تغفل عيناي ذلك اليوم، ظللت طوال الليل وأنا أنتظر، أنظر إلى عقارب الساعة التي تتحرك ببطء سلحفاة.

أرقد بجانب أحلامي الحمقاء واحتياجي اللعين وقلبي الممزق وعلاقتي المبتورة.

في الثانية من منتصف الليل اتصلت شيرين، كنت أجلس في منتصف سريري وأنا أضم قدمي إلى صدري وأطوقهم بيدي.

_أيوه يا شيرين

_أنتِ لسه صاحية؟

_تفتكري هيجي لي نوم!

_حنان، هو أنتِ بجد هتروحي بكره؟

_لازم أروح

_بلاش يا حنان،مترخصيش نفسك اكتر من كدا، كفايه اللي أنتِ عرفتيه.

_محتاجة أكرهه.

انتهيت مع شيرين بعد مجادلة طويلة بيننا في محاوله منها بأقناعي على عدم الذهاب لهيثم، لكني إصررت على قراري.

لم تغفل عيناي ذلك اليوم حتى لو دقيقة واحدة، دق منبه هاتفي في تمام الساعة العاشرة صباحًا، أغلقته وقمت بالاتصال بـ هبه لأؤكد عليها ميعادنا، وأعرف منها كيف سأقابلها .. أثناء حديثي معها كانت شيرين علي الانتظار، تسألني ماذا سأفعل وقالت إنها لن تتركني وحدي وستأتي معي.

مرت دقائق قليلة، خرجت من منزلي واتجهت إلى المترو، قابلت شيرين، وأخبرتني أن نورهان وهالة في انتظارنا بالجامعة، ظلت تتكلم طوال الطريق وأنا أتجاوب معها بهزات رأسي فقط، لكني لا أعي ما تتفوه به، أنظر إليها وعقلي شارد يقلب كثيرًا من الأفكار المتداخلة.

نزلت أنا وشيرين في محطة رمسيس، كانت هبه في انتظارنا، لم أتحدث بشيء، حتى قالت هبة بأنها أخبرت أختها بكل شيء، وسنجلس معها.

كلما اقتربت من منزله ثقلت قدمي، أشارت لي هبة على موضع شرفته، تقدمنا خطوات قليلة ودخلنا عمارته، كان يسكن في الدور الرابع، في كل خطوة أخطوها أثناء صعودي السلم، تتصاعد دقات قلبي، وصلت إلى الدور الذي يسكن به، أشارت هبه إلى شقته.

نظرت إلى الباب الذي يختبئ خلفه شخص تفنن في تكسير قلبي دون سبب، لم تمر عشر ثوانٍ على نظرتي لباب شقته، وجدت بابه يُفتح، نظرت أنا وصديقاتي بدهشة وترقب وتصلبنا بمكاننا، وجدته هو، يخرج من شقته مودعًا زوجته وابنته، في تلك اللحظة نظر إلينا وأدار وجهه، ثم عاد سريعًا، نظر وكأنه لم يصدق، أراد أن يتأكد من عينيه، نظر إليَّ نظرة طويلة، مما جعل زوجته تنظر إلينا أيضا، حولت نظرتها إلي هبة، وألقت عليها السلام، وأنا أنظر إليه بكل أسىً ومرار ..مرت ثوان، سلّم على زوجته، وألقى السلام علي هبة، مر بجانبي ولم يقل شيئًا

ما عاد هناك شيء من لحظات الفرح التي سرقتها من الدنيا وسرقها هو مني، لم يبق شيءٌ من تلك الأوهام، لم يترك لي حتى ذكرى أبتسم لها.
انتهت قصتي مع هيثم، القصة التي لم تكن يومًا حقيقة، أدركت حينها أنه لم يكن هناك أي شيء حقيقي في علاقتنا سوى دمعاتي.

انغمست في حضن وسادتي، صرخت في قلبها، انكمشت على نفسي كطفل صغير يرتعش من البرد، أرتجف من الألم الذي أشعر به، والمرارة تجري في أنحاء جسدي، تمنيت وقتها أختًا، فقط أخت .. تخيلتها تحتضني، تستمع إليَّ، تُمسك يدي، تمسح دمعاتي، تحتويني وتحتوي ألمي.
تأكدت أن الحياة ستختلف تمامًا بوجود أختٍ لي، كنا سنسهر معًا، نضحك، نتشاجر، الوحدة قاتلة، والاحتياج مذاقه علقم.
مر اليوم بطيئًا ومرهقًا، ظللت طوال الليل أحتضن وسادتي وأبكي، بالرغم من الهدوء القاتل الذي يسود الدنيا من حولي، لكني كنت أحمل في داخلي ضجيج لا يهدأ، حاولت إسكاته كي أستكين وأغفو، لكنه ظل يعلو حتى شروق الشمس، أرهقني الحزن وأكلتني الحسرة، وغبت تمامًا عن الوعي.
لم أشعر إلا و يد أمي تهزني:

_الساعة واحدة الضهر، أنتِ إيه اللي منيمك لحد دلوقتي؟ صحابك اتصلوا على تليفون البيت.

نظرتُ إليها وأنا أحاول فهم ما يحدث، هل كان حلم، كابوس، لا يمكن أن يكون ما حدث واقعيا، أمسكت هاتفي لأتصل بصديقاتي، وجدتهم قد هاتفوني أكثر من عشرون مرة.

كنت وقتها غير قادرة على تحريك جسدي من التعب، لم أكن قادرة على مجرد الوقوف، لكنني لا أستطع أنْ أبقى بين تلك الجدران أندب حظي العاثر وحماقتي الكبيرة، ضغطت على نفسي وقاومت ضعفي.

خرجتُ من منزلي، كانت خطواتي ثقيلة جدًا رغم زحام الطرق والضوضاء المتصاعدة من حولي، إلا أنني لم أسمع سوى أصوات جرحي وأنين قلبي، اتجهت إلى عربات المترو، وعلى غير العادة كانت عربة السيدات هادئة نوعًا ما، وضعت سماعات هاتفي في أذني في محاولة مني لإخماد أصوات الضجيج بداخلي بأصوات أعلي، أدرت مشغل الأغاني، لم أنتبه لأي شيءٍ من حولي، أغمضت عينيَّ خلف نظارتي الشمسية أتذكر عينيه، ابتسامته، صوته، حديثه، كل شيء، كل شيء فيه أمامي، إلا هو.
وصل المترو لمحطة الجامعة، اتصلتُ بصديقاتي وأخبرتهم أنني في اتجاهي إلى بوابة الجامعة، طلبت منهم أن نذهب إلى الكافيتريا التي كان يجلس بها هيثم، صاحت شيرين بغضب:

_أنتِ ليه بتعملي كدا ؟؟ عايزة إيه تاني يحصل!

صمتُّ ،تجاهلت سؤالها، قلت بهدوء:

_أنا هروح على هناك، اللي عايزة تيجي تيجي.

أغلقت هاتفي في وجه شيرين، كانت مُحقة تمامًا، لكني حقيقي لم أعلم لمَا قررت أن أذهب إلى الكافيتريا المشؤومة، ماذا أريد؟ !إن وجدته، هل سأحدثه !وإن حدثته، ما الذي سأقوله!

لا أعلم، لكني سأسأله فقط، لماذا فعلت بي هذا؟ لماذا!

اتصلت بي نورهان وأنا في طريقي للكافيتريا، ردت عليَّ مسرعة قبل أن أتفوه بأي كلمة:

_حنان، أنتِ هتروحي ليه؟ صدقيني مستحيل هيكون موجود.

_أنا عايزه أشوفه، عايزه أكلمه، عايزاه يسمعني، ليه يعمل فيَّا كدا !وليه يسيبني بالطريقة دي !

رددت تلك العبارات ثم أخذت نفسا عميقًا وبكيت بانهيار، ثم تابعت حديثي معها:

_أنا مش عايزه حاجة منه غير إنه يقول عمل معايا كدا ليه؟ استفاد إيه لما وجعني؟ أنا مش هقول له ارجع لي، أنا هقول له منك لله بس.

قاطعتني نورهان بهدوء:

_طيب اهدي يا حنان لو سمحتي، أنا حاسة بيكِ.

_لا يا نورهان أنا محدش حاسس بيَّا ولا بوجعي ولا بحزني ولا كسرتي، هيثم كسرني يا نورهان، كسرني، سيبوني أكلمه، أقوله اللي جوايا، أنا حاسة بمنتهي الرُخص، حاسة إحساس واحدة مومس، جالها زبون أخد غرضه وسابها من غير كلام، مش من حقها حتى تتكلم، مش من حقها أي حاجة.

_يا حنان هو أكيد مش هييجى عشان يسمع منك الكلمتين دول، أكيد مش هييجي تاني هنا.

_هروح له أنا،هروح له بيته، هروح لمراته، هروح في أي حته.

_تروحي فين بس؟ طب تعالي الجامعة ونتكلم.

_ممكن تسيبوني، أنا مش ههدى غير لما أشوفه.

شعور الخيبة مُهلك ومُميت، كنت بمثابة شخص سقط من برجٍ عالٍ، سقط على الأرض وتكَسرت عظامه، لا شك أن شعور العجز يأكل الجسد، أحاسيس مختلطة ومشاعر مقيته، كوكتيل من الانكسارات والخيبة والألم.

وصلت إلى الكافيتريا، نظرتُ من الخارج أتأكد من وجوده، لكنه لم يكن هناك، دخلت أبحث عنه ولم أجده، جلست في انتظاره علَّه يأتي.
كانت الساعة الثانية ظهرًا، سألت عامل الكافيتريا عنه، أخبرني أنه لم يأتِ اليوم، مرت ساعة، ساعتان، أربع ساعات، ولم يأت، دفعت ثمن قهوتي وأثناء خروجي وجدت صديقاتي اللاتي اتصلن بي مرارًا خوفًا عليّ، سألنني، هل جاء !أشرت بإصبعي نافيةً، اتجهنا في صمت إلى عربة المترو، كنت صامتةً طوال الطريق، على الرغم من ثرثرة صديقاتي في أمور مختلفة، بقيت شاردة تمامًا، ودعت صديقاتي وكل واحدة منا سلكت طريق منزلها.

***

مرت أربعة أيامٍ على فراقي لهيثم، مرورًا سريعًا رغم ثِقل عقارب الساعة، لكن الحياة تستمر، مهما حدث لن تقف على أحد.

أفتقده وأحن إليه أحيانا، وأحيانا أنفرهُ وألعنه .. كنت على أتم الاستعداد لتصديق كل أكاذيبه وتقبُل كل مبرراته، كنت سأتفهم كل شيء، لو كان هاتفني وتحدث إليَّ، لكنه جبان، لم يجرُأ علي مواجهتي..

في صباح يوم جديد، وكعادتي استيقظت لأذهب إلى جامعتي، ذهبت إلى محطة المترو وانتظرت صديقاتي، أثناء انتظاري لهم جاء شخص يبيع خطوطًا للهواتف، لم أُفكر لحظات ومن ثم اشتريت منه خطًا، وأيضا كارت للشحن.

حضرت صديقاتي واستقلينا المترو، رأين الخط بيدي وسألوني عما إذا كنت قد نويت تغيير رقمي، أجبت بالنفي، وأخبرتهن بأني اشتريته من بائع في المترو ولا أعرف ماذا أفعل به..

لكني في داخلي كنت أعلم ما الذي سأفعله، أخفيت عنهم، صديقاتي اللاتي نسين أنني ما زلت أنزف، وكوني لا أتكلم عنه، فربما تخيلن أنني نسيت ومحوت كل ما سببه لي هيثم.

مر اليوم بالجامعة، وكعادتنا سلكنا الطريق ذاته، كنت أتحدث معهم وأشاركهم حديثهم .. أضحك، وكأنه لم يتغير شيء، تعودت منذ الصغر أن أُخفي ألمي، أن أبقى أمام الجميع صلبة لا تنكسر، ولا يهمها تقلب الريح..

عُرفت بين كل ما حولي، بابتسامتي التي لا تُفارقني ابدا، حتى اننا عندما أشكو لأحد، وأكشف عن حُزني، أضحك بمنتصف حديثي وأحول كلامي المُرَّ إلى مزحة.

في عمري هذا لم يتصادف أن بكيت أمام أحد، إلا مرات قليلة لا تتجاوز الخمسة، قليلون من رأوا دمعاتي، عادةً لا أبكي حتى ولو تعرضت للتوبيخ من أمي أو أبي.

أتذكر مرة، كانت أمي تتشاجر معي، حتى وصل الشجار بيننا إلى الضرب، ورغم ألم جسدي لم أبكِ، تخيلت أمي وقتها أن الضرب لا يؤلمني، مما جعلها تُضاعف قوة الضربات، وقالت لي بحدة " عيطي، أنا عايزاكي تعيطي.. ""

****

عدت إلى بيتي ودخلت غرفتي، أغلقت بابي عليّ، قمت بغلق خطي القديم وفتحت الخط الجديد وشحنته بالرصيد، ودون سابق تفكير، كتبت رقم هيثم واتصلت به.

رد عليّ من أول اتصال، صمت أنا قليلا ووجيب قلبي يتصاعد بحدة:

_آلو

_أنا عارفة إنك هتقفل، بس خليك راجل وكمِّل .

صمت بتأنٍ ثم أجاب:

_لا مش هاقفل .

–بُص أنا مش فارقه معايا تسبني، ومش فارقه معايا موضوعنا ينتهي، ومش هقولك ليه بتعمل كدا، بس أنا ما اتسابش بالطريقة دي، آه أنت عرفتني ف كافيه، بس أنا بنت ناس وواحدة محترمة، يعني تيجي بمنتهي الأدب وتقولي مش عاوز أكمل، وأنا ماكنتش همسك فيك بالعافية، لكن أنت أصلا أجبن من إنك تواجهني وتقول لي الحقيقة اللي أنا أصلا عرفتها خلاص..

قاطعني بهدوء :

_وفهمتي إيه بأه؟

-فهمت إنك كداب وضحكت عليا، وإنك مريض..

_ ماشي خلاص خلصتي؟

-لا مخلصتش لسه

-طيب اتفضلي كملي إهاناتك.

صمت لحظات، لم أستطع أن أخفى دموعي، بكيت وسألته بصوت مجروح:

_ليه؟ ليه عملت فيا كدا؟ اشمعني أنا؟

-حنان أنا هاقفل، سلام.

كنت أنتظر منه أن يضعف أمام صوتي المهزوز، كنت أنتظر أن يخبرني أنه لازال يحبني ولا يحب زوجته، كنت أنتظر أن يقول إنه ابتعد عني؛ لأنه متزوج ولديه طفلة، كنت علي أتمِّ الاستعداد لأن أُصدق أكاذيبه، لكنه لم يقل شيئًا، صمته كان كافيًا، لاحقته بالكلام، بلهجة عنيفة:

_أنا هقفل، بس عايزة أقولك إنك إنسان سافل و حيوان ومش راجل، وربنا ينتقم منك قريب جدًا وهياخد لي حقي في بنتك.

أغلقت في وجهه، ثم ارتميت على سريري وبكيت بكاء هستيري .. تألمت، للحد الذي لا تنفعه أدوية ولا مسكنات.

هكذا تكون صفات الرجل الخائن، كان هيثم أقوى مثال للرجل الخائن، أخطأت في حق نفسي عندما أعطيت الكثير لرجل لا يستحق القليل، كنت أتمنى أن أسأله، أجبني؟ لو كان بك ذرة من الرجولة، من أي نوع أنت !!

غباء، أعترف بالغباء عندما صدقت كل أكاذيبه، وصدقت قصة الحب العظيمة التي رماني بداخلها، أَقْسم لي أنني الحب والحياة، أقسم لي أنه لن يرى غيري، أقسم لي أنه لن يتركني، وأنه لن يردني لو احتجت له، ألم يخف من رب العباد ؟؟ ألم يكن يعلم أنه سيموت يومًا؟؟

عندما أتذكره يأتي بخيالي حديث لرسولنا الكريم) آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ(

كم مرة كَذب وكم مرة خلف الوعد وكم مرة خان!

كيف يعيش بكل هذه الوضاعة، ألم يُشفق علي نفسه وهو يعيش بدور الساقط !ينسي أنثى بأنثى أخرى، يخرج من نزوة لنزوة .. كيف يستطيع أن يبدأ قصة بعد قصة، أمن الرجولة أن تكون كلمة" أحبك "كالعلكة، سهلة وسريعة!

ألم يخجل من نفسه عندما ينظر في المرآة!

يومًا بعد يومٍ أزداد له كرهًا، أستحقره كل يوم عن اليوم السابق، الندمُ ينهش في جسدي كذئب جائع، كم كنت غبية عندما صدقت قصة الحب الواهية !أين كان عقلي عندما استأمنت نفسي مع رجل كاذب مثله!

قررت بعد هيثم أن أبدأ حياتي من جديد، أن أنساه تماما .. كلتا التجربتين كانتا خطأ، قررت أن أركز في دراستي، وأن أعود كما كنت، جامعتي وصديقاتي، أعود لممارسة هواية الرسم.

تقدم شاب لخطبة صديقتي نورهان، جاء عن طريق زوجة خالها، فرحتُ لها كثيرًا، شعرت وقتها أن هذا القرار سليم، بعيدًا عن الأفكار الوهمية، وخيال قصص الحب .. قالت لي " الحب بييجي بعد الجواز"، احترمت أفكارها نوعًا ما، وسألت نفسي، هل من الممكن أن أخوض تلك التجربة وأتزوج زواجًا تقليديًا وليس عن حب !لم أجد إجابة واضحة، لكني استبعدتُ هذا، كان بداخلي أمل ينادي من حين لآخر، قلبي يحدثني بأنني سأجد الحب الصادق، سيبحث عني أكثر مما أبحث عنه، حب يعوضني ما فات، ويداوي جراح الروح .. على كل حال فأنا كنت سعيدة لسعادتها، بعد أن حددوا الخِطبة بعد الانتهاء من امتحانات نصف العام.

كنت أذاكر خشية الرسوب، ورغم أنني لم أحب كلية السياحة والفنادق يومًا، ولم تكن اختياري، لكنها أصبحت أمر واقع بحياتي، ويجب عليّ أن أنجزها.

الله خلق بكل شخص موهبة يختلف بها عن غيره، وخلق بداخلي موهبة الرسم، كنت دائما أترك الواجب المدرسي وأرسم خلسة.

حتى وأنا بالمرحلة الثانوية العامة كنت أشتري من مصروفي الخاص أدوات الرسم، أرسم لوحات فنيه جميلة وأخفيها عن أهلي، وفي مرة فتحتْ أمي باب غرفتي فجأة، وكنت أرسم، ظلتْ تتشاجر معي ونادت لأبي، فجاء ومزَّق كل لوحاتي القديمة، ورمى جميع أدوات الرسم .. حاولوا طوال الوقت أن يحطموا أي أُمنيات لي أو أي هدف مضاد لرغباتهما، رسموا لي طريقًا ومستقبلًا لا يمكني أن أغير به شيء ، قرروا أن أصبح طبيبة، لكني خيبت آمالهم، وخانتني درجات تنسيق كلية الطب، بعدها لم يسمحوا لي بدخول كلية الفنون الجميلة، باعتبارها ليس لها مجال عملي بالحياة، علي حسب أفكارهم.

من وقتها وأنا مبتعدة عن الرسم، إلا من بعد انتهاء علاقتي بـ هيثم، قررت أن أعود للرسم كي أنشغل عنه، نسيت أنني أجيد الرسم، كنت أرسم كطفل يتعلم المشي.

مر امتحان وراء امتحان وكنت أضع نصب عيني أمل ألا أرسب في أي مادة .. كنت أتذكره دائما، هيثم الذي لم يغب عن بالي لحظة، لم أنسَ، لكني تناسيت.

****

كنت أنا وصديقاتي شيرين وهاله نجهز لخطبة نورهان، وبعد الانتهاء من الامتحانات قررت نورهان أن تقيم حفل الخطوبة بمكان بسيط يكون بمثابة حفل عائلي، يشمل المقربين منها فقط، اجتمعت بنا وأخبرتنا أن نكون" على سنجة عشرة "كي تخطف كلا منا عريسًا من أصدقاء خطيبها.
اشتريت فستانًا بسيطًا، حقيقي لم أكن أهتم بأن يتقدم لي عريسٌ لخطبتي، لكني لا أنكر أنني أحب أن أظهر بكامل أناقتي، ولا مانع من أن يُعجب بي الضيوف.

في الخامس من فبراير، ارتديت فستاني الأسود الرقيق وانتهيت من جلسة مكياجي البسيط، لأذهب إلى حفل خطبة نورهان، أخذني أبي بسيارته ومررت على صديقتي هالة التي تسكن بجواري، وذهبنا إلى مكان الحفل.

شيرين كانت تنتظرنا أمام القاعة، ومن ثم دخلنا معًا، وبدون مبالغة وجدت النظرات تحاوطنا، كنت أعلم أن تلك النظرات خاصة بي وحدي، ليس لأنني الأجمل، لكنني أعلم أن لدي طلة وجاذبية لا أعرف سرهُما.

كانت نورهان عروسًا جميلة جدًا، ترتدي فستانا ذهبيًا بسيطًا، خطيبها أيضا كان وسيمًا نوعًا ما، ظللنا نقف جانبها طوال الخطوبة، نرقص معها، ونصفق، لم أنظر إلى أحد غيرها بالحفل، رغم أن شيرين وهالة كانتا طوال الحفل تنظران الي أصدقاء العريس، كانا يحددا من الاوسم من الآخر، لكنني لم أهتم بما يفعلوه.

رغم أنني لم أنظر إلى أحد، لكن للحظة ما وقعت عيني على شخص ، والذي لفت انتباهي انني وجدته ينظر الي ايضا.

استمريت أنا وذلك الشخص نتبادل النظرات فقط، كنت أنظر إليه، وكأنني لم أقصد.

لا أعلم لماذا لفت نظري بهذه الطريقة دونًا عن غيره، كانت وسامته الفائقة تُثير أي فتاة، لكنني لم أهتم كثيرًا بواسامته، بل ما شد انتباهي هو طوله، وجسمه المتناسق، بدلته السوداء وربطة عنقه الحمراء، والأهم من كل هذا" ذقنه "الخفيفة البُنية .

مر الوقت سريعًا وانتهى الحفل، اتجهت أنا وصديقاتي إلى باب الخروج لأقابل أبي، قبل أن أخرج وجدته واقفا أمام الباب وينظر إليَّ، صديقاتي لاحظن الأمر وسألنني هل أعرفه، قولت لا ..

خرجت ووجدت أبي يقف بالسيارة، ركبت معه أنا وصديقاتي .. نظرت له وجدته ينظر إليَّ أيضًا، ثم مضيت، وأنا طوال الطريق أفكر به.

عدت إلى البيت ولم أقدر على نسيان عينيه ونظراته شديدة الوضوح، لكني سريعًا ما تراجعت عن تلك السذاجة، ورأيت أن النوم هو الحل.

حاولت أن أنام لكني لم أستطع، نهضت من نومي وجلست على سريري أفكر بهذا الجنون الذي احتل عقلي فجأة، أمسكت هاتفي واتصلت بـ نورهان، وكأنني أتحدث عن هذا اليوم معها، استمرينا في الحديث عن الحفل وفستانها وتسريحة شعرها، وعن خطيبها، كنت أود أن أبدأ

الحديث عن ذلك الشخص الغامض، لكنني لم أجد طريقه ملائمة للحديث، إلا أنها هي من فتحت المجال بسؤالها لي:

_وإيه، معرفتوش توقعوا عرسان في الخطوبة أنتِ والبنات.

ضحكت واستكملت كلامي معها وكأنني بستكمل مُزحتها:

_أنا عن نفسي لا، اسأليهم هما، بس كان واحد كدا ،عمال يسبل بس

_يسبل ازاي؟

_كان عمال يبصلي طول الخطوبة.

_مممم طيب شكله ايه؟

_هو أموووور أوي، كان لابس بدلة سودة وكرافته حمرا.

_كان مقضيها نظرات بس؟

_آه

ضحكنا ورغم أن كلامي معها كان جادًا لاجدًا، لكني كنت أتمنى أن تعرفه أو أن يكون قريب، قالت لي إنها لا تعرفه.

مر يومان على ذلك الحفل، وعقلي توقف عن التفكير فيه، كان مجرد شخص رأيته في مكان ما صدفة، لن نتقابل مرة ثانية، وانتهى الأمر.

في الصباح، اتصلت بي نورهان وأخبرتني أنها ستأتي لي بالمساء، توقعت بأنها ستجلس معي كعادتها عندما تشعر بالملل، لكنها في الحقيقة جاءت لسبب آخر لم أتوقعه لحظة.

_فاكرة الواد اللي أنتِ قولتِ لي كان عمَّال يبص لك كتير في خطوبتي؟

صمت قليلا، ليس لأتذكره، لكني أحاول أن أتوقع الحديث القادم، أجبتها بشغف..

_آه فاكراه، ماله؟

_مش هو عينيه ملونه كدا وطويل وعنده دقن خفيفة؟

_آه هو، ماله يا بنتي!!

_دا طلع صاحب خطيبي، وسأله عنك ويحيي قاله إنك صاحبتي.

صدمة لم أكن أبدًا أتوقعها، امتلأ وجهي بالدماء، لا أصدق، الشخص الغامض معجب بي ! شخص بهذه الوسامة معجب بي أنا، لم أستطع أن أُخفى سعادتي أمام نورهان، وسألتها:

_يعني كلمو عني ازاي؟ معجب بيا يعني!

_لا عايز يخطبك، أصل يحيي قال لي انه ملتزم جداااا ومالوش في الارتباط وكدا.

أمسكت يدها بفرحة عظيمة ممزوجة بصدمة أيضًا:

_عايز يخطبني أنا !كدا على طول !يخطبني بالسرعة دي!

_عادي يا بنتي ايه المشكلة، منا يحيي شافني مرة واحدة وخطبني على طول.

_طبعا موافقة موافقة بالثُلث، موافقة جدا، موافقة آخر حاجة كلمي يحيي قولي له إني موافقة.

ضحكت نورهان وردت عليّ:

_اهدي يا بنتي، أنتِ عايزاه يقول إنك مصدقتي، أنتِ حتى مش سألتي عنه، شغال إيه، كام سنة ساكن فين!

_لا مش عايزة أعرف حاجة، موافقة، دا أمور اوي اووووي.

_طيب بصي هو عموما اللي أنا عرفته من يحيي إن عنده 30 سنه وشغال مهندس في شركة مقاولات وساكن في مدينه نصر.

_الله، واسمه !! واسمه ايه؟

_اسمه مصطفى.

كنت أشعر وقتها أنني في حلم، لم أتخيل أن السعادة يمكن أن تأتي بهذه السرعة، كم تمنيت أن أري شخص وأُعجب به، ومن ثم يأتي ليدق على بابي.

_بصي هو يحيي قالي إننا بكره ننزل أنا وأنتِ ويحيي يكلمه ييجي، وتقعدوا مع بعض.

_بس أنا هخرج ازاي؟ ما أنتِ عارفه إني مش هعرف أنزل من البيت.

_مممممممممم اتصرفي يا حنان، قوللهم أي حاجه وانزلي.

طوال الليل وأنا أفكر في تلك السعادة التي اجتاحت قلبي بهذه السرعة، كل هذه المواصفات في شخص تقدم لخطبتي، كنت أعلم أن السعادة قادمة لا محالة، لكن بهذه السرعة !شيء لا يتصوره عقل .. مازال قلبي ينبض بالحب رغم ما حل به، مازال نور الأمل يُضيء عتمة خوفي.

قضيت ليلي بين تفكيري بهذا الحلم، وفيما سأرتدي، وبين الحجج التي سأقدمها كي أستطيع أن أخرج من المنزل.

حددوا الميعاد الساعة السادسة، كنت أجهز نفسي من الساعة الثانية ظهرا، استمريت في غرفتي أرتدي ملابس ثم أخلعها وأرتدي أخرى، ذهابًا وإيابًا والتوتر يسيطر عليَّ ماذا لو رفض والدي ! بعد تفكير طويل، قررت أن أخبرهم بأن شيرين قامت بإجراء عمليه الزائدة، وسأذهب لها أنا ونورهان وهالة.

وبالفعل أخبرت أمي بذلك، ترددت كثيرا، ثم سألتني عن الميعاد، ومتى سأعود.

سارعت بالاتصال بهالة وشيرين لأبلغهما حتى لا يقوموا بالاتصال بي علي تليفون المنزل، لكني اضطررت أن أخبرهم أيضًا بما حدث مع ذلك الشاب دون الخوض في التفاصيل مؤقتًا.

في الساعة الخامسة والنصف كنت على أتمِّ الاستعداد للمقابلة، أتذكر ذلك اليوم جيدا، وأتذكر كل تفاصيله، حتى ملابسي أتذكرها .. ارتديت بنطلون الجينز الكحلي وبلوزة مقلمة بالأبيض في الكحلي، وجاكت من الجلد لونه أحمر، وضعت مكياجي الرقيق، كنت على درجة عالية من الجمال والبساطة، اتصلت بنورهان لأخبرها أنني جاهزة، أخبرتني بأن خطيبها ينتظرها أسفل منزلها، وطلبت مني أنتظرها أيضًا أسفل منزلها.

ذهبت إليها، وجدتها تنتظرني مع يحيي خطيبها في سيارته، كان يحيي شابًا رقيقًا ومحترمًا جدًا، أخبرتهما أنني لا أريد أن أبتعد كثيرًا عن منزلي حتى لا أتأخر ،أخبروني بأننا سنجلس في كافيتريا قريبة.

كنت متوترة وسعيدة في نفس الوقت، طوال الطريق وأنا أفكر به، وأتخيل حياتنا معًا.

ركن خطيب نورهان سيارته على مقربة من الكافتيريا، كان واقفا ينتظرنا أمام الباب، وصلنا له، نظر لي وابتسم، ثم سلم على يحيي، ورمى السلام فقط عليَّ أنا ونورهان، لم يمد يده إلينا، رغم أنني استغربت رد فعله هذا، لكنها كانت أول نقطة إيجابية له.

كان وسيما لأبعد الحدود، يرتدي بنطلونًا أسود وجاكت أسود كاجوال وأسفله بلوفر بنفسجي غامق، جلسنا معًا نحن الأربعة .. شخصية ظريفة جدًا ومرح، رغم أنه وقور، لكنني لم أكف لحظة عن ضحكاتي، كنا نتحدث عن حفل خطبة يحيي ونورهان ونضحك، أوقفه يحيي عن حديثه قائلا:

_ايه يا بني هو أنت هتفضل قاعد كدا معانا، أنا لسه خاطب البنت عايز انفرد بيها.

وضعت عينيَّ في الأرض وابتسمت في خجل، رغم أنهم انفجروا بالضحك ثم رد عليه:

_معلش حضرتك، إحنا آسفين.

ثم نظر إليَّ وهمس بصوت رقيق:

_تحبي نسيبهم شويه ونقعد على الترابيزة اللي هناك دي؟

_اوك مافيش مشاكل.

جلسنا على بعد خطوات منهم، طلبت كوبًا من عصير البرتقال، وهو طلب فنجانً من القهوة، لم أكن خائفة أكثر من أني كنت سعيدة جدا .. ذقنه هذه لم تخفيني، بل أشعرتني بالأمان والثقة،

استطاع أن يكسر حاجز الخجل بيننا، فظل يمزح معي، ويحكي لي مواقف طريفة، وفعلا بذكائه شعرت بأنني أعرفه جيدا واستمريت أنا أيضًا أحكي له مواقف طريفة.

أنهينا حديثنا المرح هذا، ومن ثم بدأ يسألني عن ذاتي، أين أسكن ؟ وظيفة أبي وأمي؟ وهل لدي أخوات؟ .. أسئلة طبيعية لأي اثنين يتعرفان على بعضهما لأول مرة، لم أسأله عن أي شيء، وأخبرني هو:

_اسمي مصطفي وعندي 30 سنة ومهندس في شركة مقاولات وساكن في مدينه نصر، والدي متوفي، وعندي أخت أصغر مني متزوجة، أنا متدين جدا ودقني دي مش موضة، بس في نفس الوقت مَرِح ومش مُعقد، عايز أرتبط ببنت محترمة، وبنت ناس تحافظ عليَّا.

كنت أسمعه وأنا أقول في نفسي" هو دا اللي ربنا بعتهولي في حياتي، هو دا الحلم "

سألني سؤالا لم أكن أتوقعه:

_ارتبطتي بحد قبل كدا يا حنان؟

ظهر عليَّ أثر التوتر،أمسكت بكأس العصير، وأخذت منه رشفة، حاولت أُفكر في رد، كان تفكيري سريع، عقلي أبلغني سريعًا بأن أقول الصدق، مهما كلفني الأمر، يجب عليَّ أن أبدأ حياة خالية من أي كذب أو إدعاء.
قلت له نعم ، ارتبطت باثنين، وجدت وجهه يتغير وابتسامته تتلاشى، رد عليَّ بتعجب، اثنان! أومأت إيجابا، طلب مني أن أحكي، أخبرته صراحة عن علاقتي بالاثنين، أخبرته أنني ظُلمت في هاتين القصتين، أخبرته بأنهما استغلال نبل مشاعري أسوأ استغلال بحروف بسيطة مُثقلة:

_اتجرحت جدا في الموضوعين، الاتنين حيوانات، بس الحمد لله أنا نسيتهم خالص، وكنت بتمني أنى أقابل حد كويس يعوضني، ويحترم مشاعري ومش يستغلها.

كان يهز رأسه من حين لآخر ويستمع إليَّ بتأني، أنهيت حديثي لكنه لم ينطق بكلمة.
انتفضت حين رن هاتفي، كانت أمي تتصل بي، ارتبكت جدا، اخبرته إنها أمي، استأذنت منه وذهبت إلى الحمام لأرد على أمي خوفا أن تسمع أصوات الضجة بالمكان، أخبرتني بأنني يجب أن أعود إلى البيت الآن نظرت إلى ساعة يدي وجدتها التاسعة وعشر دقائق، مر الوقت سريعا معه ولم أحس.

ذهبت له مُجددا، كنت أعلم أنه سيصرف نظر عني حُكما لتدينه، وأهلت نفسي بأن أعتبره شخصا تعرفت إليه بمكان ما وكفى، لكنني عندما عُدت سألني، ماذا حدث، أخبرته بأني لم أقل لأمي على مسألة خروجي لمكان غير بيت نورهان، وطلبت منه أن نذهب الآن.
قال لي بأنه سعيد جدا بأنه عرفني، طلب مني رقم هاتفي، لم أصدق، شعرت أن الأمل يلوح بقوة في الأفق، تبادلنا أرقام الهواتف، واتجهنا إلي يحيى ونورهان، أخبرهما بأنني تأخرت كثيرا ويجب أن نذهب، ثم طلب هو الحساب، ظل هو ويحيى يتشاجران على دفع الحساب، واستقر الأمر على مصطفى ليدفع، كَثرت وقتذاك النقاط الايجابية التي تُحسب له.
سلم علينا ومضى، طلبت من يحيي أن يعود سريعًا لأن أمي تشاجرت معي بسبب تأخُري.
سألني يحيى عن رأيي في مصطفي، قلت له بأنه محترم وخلوق .. لم أكن أشعر بسعادة حقيقية، سعادة ممزوجة بتوتر وخوف، كنت أفكر في أبي وأمي خوفا، ما الذي ينتظرني بالبيت، لوم وندم علي صدقي مع مصطفى، كان على أن أُخفي على الأقل نصف الحقيقة، وليست الحقيقة كاملة.

عَدت إلى البيت، كانت أمي في استقبالي، في الحقيقة كان استقبالها متوقعًا، حافلا بالشجار والتوبيخ على تأخيري، ظلت تتشاجر معي تقريبًا نصف ساعة، وأنا لم أنطق، أنهت شجارها بقرارها أني لن اذهب لأي من صديقاتي مرة أخرى.
دخلت غرفتي حاملة هم كل شيء من حولي، أخذت نفسًا عميقًا ممزوجًا بالقهر، كنت أتمنى أن يكون هناك شيء واحد فقط يحلي مرار الأيام.

جلست علي حافة سريري، ألعن حظي العاثر الذي دائما ما يرميني نحو الأسوأ من الأمور، لم أتمنى يومًا أن أُولد بهذه العائلة، دائما أنظر إلى ريهام بنت خالتي، والتي تعيش حياة أفضل مني، تمنيت كثيرًا أن تكون خالتي هي أمي، أنظر إلي ريهام دائما بنظرة حسد، كيف تعيش تلك الفتاة بين أحضان أمها التي دومًا تحتضنها وتحتويها وتغرقها بكل ما أُوتيت من حب .. كم تمنيت أن يكون والد صديقتي نورهان هو أبي، أبوها الذي يمنحها الأمان والدفء العائلي والمشاورة في كل الأمور، أنظر إليها، وهي تجلس علي فخذيه فيحتضنها ويضمها إلى صدره بقوة حبيب، أندب أنا حظي بكل حزن وأسىً، صورة مصطفي ظهرت أمام عينيَّ، ندبت حظي أكثر وأكثر كلما تذكرت، أظن القدر أبعده عني، حتى القدر يتعاون معهم ضدي.

رن هاتفي، انتفضت في مكاني، أخرجته من حقيبتي، ظهر رقم بدون اسم..

_آلو

_ازيك يا حنان.

_الله يسلمك ، مين؟

_لا مش معقول لحقتي تنسي صوتي؟

كنت أحفظ صوته جيدًا، لكني كنت بيني وبين نفسي لا أود أن أمنح لنفسي الأمل بالكامل، كأنني حتى أنا أستكثر الفرحة على نفسي، لكني رجعت وقلت لماذا أكتم الفرحة بداخلي، لأفرح وليكن ما يكون .. منحته صوتًا هادئًا ممزوجًا بسعادة غامرة,

_مصطفي، صح؟!

_آه صح ، أنا كنت عايز اطمن عليكِ، وصلتي بالسلامة؟

_آه الحمد لله

_ماما اضايقت علشان اتأخرتي.

_آه بس عدت يعني، هو ده رقمك؟

_آه رقمي ، سجليه بأه.

_اوكي، معلش أنا نسيت أسجله، أنت عارف الدوشة اللي كنت فيها.

_لا ولا يهمك، كنت عايز اقولك علي حاجه مهمة.

_اتفضل.

_انا معنديش مانع خالص إن البنت اللي أرتبط بيها يكون عندها تجارب قبل كدا، وخصوصا لما تكون بنت محترمة، ومش معني إن الاتنين اللي عرفتيهم طلعوا حيوانات زي ماقلتي، إن كل الناس وحشة، جايز دي تكون حكمة من عند ربنا علشان يخلينا نشوف اللي قدامنا كويس.

بهذه الكلمات المرتبة البسيطة بنيت أحلامًا ربما لامست السحب، أيقنت أن القدر دائما ما يُخبئ لنا ما يفاجئنا، حتى وإن كانت تجربة قاسية فليست هي النهاية، لربما تكون أفضل بداية.

****

مارس .. مرَّ شهرٌ علي علاقتي بمصطفى، الحق يُقال، كانت به كافة مواصفات الرجل التي تحلم بها أي فتاة، لم يطلب مني أن نتقابل بمفردنا، كنا دائما ما نتقابل في وجود نورهان وخطيبها، لم يطلب مني مرة أن يمسك يدي، كان ايضا كريم جدًا ..
يغار كثيرًا عليَّ، أعشق ذلك الرجل الذي يغار على حبيبته.

يهتم بي وبكافة تفاصيل يومي، يسألني دائمًا على صلاتي، على الرغم من أنني لم أكن منتظمة بصلاتي، ومن وقت معرفتي به، انتظمت بالصلاة، لن تكن فقط بسببه أو لأنني أحبه، لكني وجدت من يساعدني أن أقترب من الله، من يحثني على الصلاة وتلاوة القرآن، عكس أهلي الذين لم أسمعهم مرة واحدة حتى يحثوني على الصلاة.
كل مرة يأتي فيها إلى رؤيتي، كان يعطيني كتبًا دينية، عن الصلاة والأذكار وأيضا الحجاب، خاصة أنه حدثني أكثر من مرة عن حجابي.
رغم أن فكرة الحجاب كانت مؤجلة لديَّ، لكني قررت أن أرتديه، لم أفكر كثيرًا في هذا القرار، ولم أعلم وقتها سبب قراري هذا، اقتناعي به أم رغبة لإرضائه.
كل ما في الامر، انني كنت اريد رجل يُخاف الله فقط .. لانه سيخشي من أن يلحق بي اي ضرر.

****

في منتصف مارس كان يوم عيد ميلاد مصطفى، قررت أن أجعل قرار حجابي مفاجأة عيد ميلاده، أحضرت له هدية بسيطة عبارة عن زجاج "عطر" في علبة انيقة بها ورد مجفف، تذكرت حينها وأنا أختار الهدية، كلمات إحدى الفتيات العراقيات التي تعرفت عليها بالصدفة بالجامعة، عندما كنا نتحدث عن فن اقتناء الهدايا، أخبرتني يومها أنَّ هدايا" العطور "تُعبر عن الفراق، لكني لم أبالي، واعتبرتها مجرد أفكار عبثية ومفاهيم خاطئة، على رغم أنني أخشي فراق مصطفى، لكني تخيَّلت أن علاقتي به أقوى من تلك الخرافات.

كنت أنتظره مع نورهان ومحمود وأيضًا شيرين وهالة بأحد الكافيهات التي اعتدنا الجلوس عليها، جاء بعد أن أنهى عمله في الثالثة عصرًا، نظر إلى نظرة طويلة، وادرك ان حجابي هو هدية عيد ميلاده، سلم على الحاضرين، وكنت أنا آخر من يسلم عليه، همس إليَّ بصوت خفيض:

_إيه الجمال ده؟ مبروك.

ابتسمت في خجل واضح، وهنأته بعيد ميلاده، قدمت له هديته ثم احتفلنا جميعًا، وأطفأ مصطفى الشموع ،ها بدأ أول عام في الثلاثين وأنا معه.

سهرنا يومها معاً حتى مطلع النهار، نتحدث هاتفياً، هنأني على حجابي، أخبرني أن هذه المفاجأة هي أكبر هدية بيوم ميلاده، كان سعيدا للغاية، سألته عن رأيه في العطر الذي اخترته على ذوقي، أبدى لي إعجابه وأثني كثيرًا على اختياري.

مر يومان علي عيد ميلاد مصطفى، كعادتنا نتحدث دائما الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل؛ حتى لا يسمعني أحدٌ من أسرتي، ولحظي العاثر، استيقظ يومها أبي وسمع حديثي مع مصطفى، فتح باب غرفتي بغضب، متسائلاً مع من كنت أتحدث.

أغلقت الهاتف في وجه مصطفى، وأنا أنفي لأبي ما يقول، أخذ مني هاتفي يبحث في قائمة مكالماتي، وجد اسم مصطفى آخر المكالمات، كنت أرتجف خوفًا، أفكر فيما سيفعله أبي معي ..

سألني بصوت حاد:

_مين مصطفي دا؟

أجبته بتلعثم والخوف يُلجم لساني، قلت إنه صديق بالجامعة أتحدث معه بخصوص دراستنا.. لم أُكمل حديثي، وجدت صفعة تهوي على وجهي، سقطت أرضًا من عنف الصفعة، سبني بكل ما يحويه قاموسه من كلمات، علو صوته شدَّ أمي من نومها، أخبرها بما حدث، ودون أن تسمعني، لطمتْ سريعًا على وجهها، مرددة عبارات الندب والنعي :

"يا دي الفضيحة، يا خسارة تربيتي فيكِ، جبتلنا العار !! "

لا أعلم عن أي عار تتحدث أمي !! كنت أنظر لها بذهول وتكثر تساؤلاتي.

قد تكون دقائق قليلة هي مدة هذا الموقف، لكن هذه الدقائق احتلت موضع الصدارة الحقيقي لحزني، أخذ أبي هاتفي، وأصدر فرمانًا بعدم الذهاب إلى الجامعة إلا في أيام الامتحانات.

سألت نفسي وقتها لماذا يضع أبي على وجهه غلاف صورة الأب الحقيقي، الأب ليس كما تخيله مجتمعنا، الأب ليس بصوته العالي والغليظ، ليس بقوة يديه التي تنهال على الأبناء، حقيقي أن الأب يقوم بدور المراقب، لكنه يثق في أولاده وإلا فمن أين يجدون الثقة.
الأب من يحتضن ابنته، يحتوي قلبها الهش، الأب هو من يصحح أخطاءها، هو الذي يقف سند لها، ظهرها الذي يتحمل سقوطها ، هو من يربت علي كتفيها في لحظات حزنها، من يستيقظ بمنتصف الليل ليغطي جسدها من الصقيع ..
هو وهو وهو.

قبل أن يصفعني تلك" الكف "كان عليه أن يسأل نفسه لماذا لجأت لرجل غيره وهو عالمي المعروف من الرجال!
لم يتوقف لحظة قبل أن يصفني بأبشع العبارات، ويبكي على تقصيره تجاهي !!
تلك الصفعة لم تؤلمني، لم أشعر بها، أبي الذي لا يعرف أني ما عدت أشعر بأي ضربة من يده، تبلد ذلك الجسد الذي تحمل ضربه لسنوات..
لم أشعر يوماً أنه أب ، كان مجرد اسم في بطاقتي الشخصية.

مر يوم، اثنان، ثلاث، أسبوعٌ ، وأنا أجلس بين جدران غرفتي، منعزلة تماما عن كل شيء، سبعة أيام لا أخرج من غرفتي، أخبرت صديقاتي بما حدث لي، بصوت خافت كي لا يسمعني أحد من اهلي، بعد أن اتصلن بي علي هاتف المنزل، و طلبتُ منهن أن يخبرن مصطفى بما حدث.

أسبوع مرَّ ولا أحد يسأل عني سواء أبي او أمي، لا أحد يفتح باب غرفتي ليطمئن عليَّ، حتى أخي لم يفعلها..

لا ألومه على كل هذا الجفاء، ليس له ذنب، لم يزرعوا فيه الحب والعطف تجاهي.
كنت لا أحتاج أحدًا من عائلتي، علموني ألا احتاج لهم أبدًا .. هم أول من شجعني علي أن ابحث عن الحب بقلوب غيرهم، كل ما احتجته أن أجد قلبا صادقا فيه مكان لي، أجد من يمنحني بعضًا مما فقدته، أجد بيتا دافئا أعيش فيه باقي العمر.

لم أستطع أن أستكمل حياتي بهذه الطريقة، قمت بالاتصال بخالتي وأخبرتها بما حدث، طلبت منها أن تتدخل لحل هذا الموضوع ، وعدتني بأنها ستأتي لتتحدث مع أمي..
وبالفعل جاءت خالتي في نفس اليوم، كنت بغرفتي ولم أعلم ما الذي جرى بينهما.
لكن جاءت هذه الجلسة بنتيجة ايجابية، ووافقت أمي على عودتي للجامعة، وحذرتني أمام خالتي، إن تكرر هذا الموقف مرة اخرى فلن يمر مرور الكرام، مع الكثير من النصائح التي وراثتها من أجداد الأجداد..
"مافيش صداقة بين الولد والبنت، البنت ماتكلمش أي ولد لحد لما تتجوز، البنت الفاسدة بتفسد صاحبتها، البنت سُمعتها زي عود الكبريت ،" .....

في اليوم التالي قابلت مصطفى، وحكيت له كل ما حدث، أخبرته أنني يجب أن أكون حريصة جدا أثناء مكالمتي له، تجنُبًا لما سيحدث مرة أخرى، كنت أنتظر أن يخبرني أنه يريد أن يتقدم لخطبتي لكنه لم يفعل.
أكثر من شهرين مرَّا على علاقتي بمصطفى، حتي جاء لي بدون مقدمات وأخبرني أننا يجب أن نفترق، لم يكن بيننا أي خلاف من شأنه أن يؤدي لهذا القرار، قد يكون هناك بعض الخلافات الصغيرة .. غيرة، تأخُري بالجامعة، أشياء بسيطة لا تفصم تواصل العلاقة، سألته لمَ؟ !أخبرني بأن لديه ظروف لن تسمح له بأن يستمر في تلك العلاقة..

_ظروف ايه؟

_أنا آسف مش هقدر أقول.

_لا أنا من حقي أعرف.

_ظروف خاصة جدا، مش هقدر أقولها.

إستمعت إليه في صمت، عقلي رفض أن يصدق تلك الخرافات، كنت أتشبث بمصطفى، لم يكن في إمكاني أن أتقبل فراقه هو الآخر، بعد أن وجدت به كل ما تمنيت.
تلفظ بكلمات مبعثرة، لم أرتب منها شيئًا، كل ما أتذكره أنها كانت كلمات وداع.
خرجت عن صمتي، وتحرك الصوت المكبل :

_أنت كذاب، مافيش حاجة اسمها ظروف، أنت ماحبتنيش اصلا، كنت ممكن تقول إنك مش عايز تكمل بدل ما تكدب كدا.

حاول أن يقاطعني، لكن قلبي المغلوب وحسرتي عليه، أمدني بفائض من القوة، كي لا أسمعه، تشبع عقلي بكل هذا الكذب، بكل هذه القصص، الأعزار، والحجج.
أنهيت انفعالي بقولي:

_أنت كذاب، خدعتني وكسرت قلبي وربنا مش هيسمحك، الأحسن ليك إنك تبطل تتكلم عن ربنا، عشان أنت أصلا ماتعرفش مين ربنا،.

مضيت بخطوات مُثقلة، لعنت كل شيء حولي، حتى هذا القلب لم يعد به صوت ليصرخ..

ركبت المترو، أبكي أسفل نظارتي، دمعاتي التي تتسارع واحدة تلو الأخرى، لم أستطع أن أسيطر على دمعاتي، اتجهت إلي بيت نورهان، ارتميت بين زراعيها، بكيت بصوت عالٍ، حاولت تهدئتي لتفهم ما الذي حدث.
حاولت أن أهدأ كي أعود إلى منزلي، أوقفت البكاء، لكن نورهان لم توقف حديثها إليَّ، أخبرتني أنها ستتحدث مع خطيبها كي تفهم منه.

خرجت من منزل نورهان متجهة إلى بيتي، لم أعرف –تلك المرة – على أي شيء أبكي، علي فراق مصطفي لي، أم علي قلبي الموجوع، أم علي حظي السيِّئ!!
ظللت طوال الوقت أفكر بمصطفى وأبكي، آلمني حقًا، لم أستطع إقناع نفسي بأننا افترقنا، ليس لديَّ مقدرة أنْ أستكمل دونه، صدمتي فيه كانت أكبر من أي حديث، كيف يمكن أن يكون المرء بهذه القسوة، كيف يستطيع أن يكسر إنسانًا ضعيفًا هكذا، لا يمكن لي تخيل أن يكون مصطفى سيئًا بهذه الطريقة.

اتصلت بي نورهان بعد الساعة واحدة صباحًا، أخبرتني أن يحيى خطيبها تحدث إلى مصطفى، ليفهم منه ما الذي حدث، رفض مصطفى أن يخبره حقيقة ظروفه هذه، قالت لي نورهان إن يحيى تشاجر معه لأجلي، وانه يبلغني ألا أتصل به نهائيًا.

مر يومان على تلك الحال، لم أتصل به وكذلك لم يفعل هو، لم يحاول أن يتصل بي، كانت صدمتي تحجب دمعاتي، دائما الصدمة تُحجر الدمع.
لسوء حظي أن امتحانات نهاية العام الدراسي على الأبواب، لم يبقَ عليها سوى أسبوعٍ واحدٍ..
لم أقدر على تحمل الألم الذي سببه لي مصطفى، لم أستطع أن أوقف عقلي على التفكير به، لم أستطع أن أذاكر رغم أن صديقاتي جئن ليَكُنَّ جانبي.

ظلت صديقاتي معي لمدة ثلاث ساعات، بعد أن ذهبوا أحضرت هاتفي الجوال، وقررت أن أرسل رسالة، كتبت رسائل ومسحتها لأكتب أخرى، كيف أرسل كل كلمات التوسل هذه؟ !أتوقف قبل أن أضغط إرسال .. حاولت كتابة رسالة مهينة، لم استطع أن أُقلل من حجم وجعي فيها، مؤلمة جدا تلك اللحظة التي لا تعرف فيها ماذا تقول، ألا تجد ما يعبر عن وجع قلبك، مؤلم عندما تكتب كلمات في رسالة وتتراجع عنها أكثر من مرة!

لم يكن هناك أي كلمة تختصر كل شيء غير أنني" افتقدته"، أمسكت هاتفي مرة أخرى و كتبت له..

"برغم كل حاجة، بس أنا لسه مش عارفة أعمل ايه عشان ماتوحشنيش؟"!

ضغطت إرسال، كنت أعرف عواقب ما فعلت، شعرت بالندم المُميت، كيف أفعل هذا؟ بكيت بشدة وأنا أحتضن هاتفي، سمعت صوت رسالة واردة، نهضت من مكاني أفتح الرسالة سريعًا، كانت الرسالة من مصطفى، كتب بها..

" أنا كمان مش بنساكي ، وحشتيني جدا"

دون تفكير حتى لثوان، كتبت له ردا علي كلامه

" أنا عندي امتحانات ومش عارفة أذاكر، ليه عملت فيَّا كدا؟" !

أجابني أيضا بسرعة..

" أنا آسف، لازم تركزي، انا ماستهلش حتى تفكيرك دا "

كنت أقرأ رسائله وأبكي، حاولت أن أرد على رسالته الأخيرة لكني لم أجد ردا مناسباً، ظللت أبكي لدقائق، قام هو بإرسال رسالة " حنان أنتِ كويسة؟ "

قررت الاتصال به حتى وإن كنت لا أعرف ماذا الذي سأقوله..

رد عليَّ سريعًا، لم أنطق بكلمة عندما سمعت صوته، غلبني ضعفي وبكيت، طلب مني أن أتوقف عن البكاء..

_انا مش كويسة يا مصطفي .. انا مش كويسة.

سألته، لماذا فعل بي كل هذا؟ تحدثت له ودمعي يتسرب مني، لُمته على كل ما حدث وكان يسمعني ويعتذر لي بين الحين والآخر.
مرت ساعة على مكالمتنا، تحدثنا كثيرًا، لم أعرف ما هي الظروف التي أبعدته عني، لكننا بعد حديثنا الطويل هذا، عدنا مرة أخرى، أخبرني أنه لم يقدر على بعدي وأنه نادم على ما فعل..
عاد كل شيء لما كان وكأن شيئا لم يكن، عادت الحياة مرة أخرى بألوانها، كنا نتحدث دائما عبر الهواتف، جعلني أركز أكثر بدراستي.
حتى في أيام الامتحان كنت دائما ما أجده أمام الجامعة ينتظر خروجي.
يوما بعد يوم أحببته أكثر وتعلقت به أكثر، أعترف أنه منحني ما فقدت، أعطاني الحنان والعطف..

****

أنهيت امتحاناتي التي استمرت شهرًا، أخذت إجازة الصيف، كنت أكرهها كثيرًا، أدخل في سجني المكون من أربعة جدران، حتى عندما نسافر لمصيف، يكون الملل معنا صديقًا ومُحببًا.
كنت أنا ومصطفى نتحدث هاتفيا فقط، نظرًا لأنني لا أخرج بمفردي دون استشارة أهلي، مرت شهور على ارتباطي أنا وهو ولم يتكلم معي في مسألة خطبتنا، رغم أنني أعرف تماما أن ظروفه تسمح بالزواج وليس بالخطوبة فحسب، فقررت أن أفتح معه هذا الموضوع، خاصةً بعد أن تقدم لي أحد أقارب أمي لخطبتي..
أخبرته في حديثنا أن شابا تقدم لخطبتي، وأهلي ينتظرون مني ردًا، كنت أحكي له وأنتظر منه أن يخبرني أنه يتأهب لأول خطوة، لكنه لم يفعل،
فُوجئت به ينفعل ويعلو صوته، موجهًا لي الانتقادات والاتهامات..

_مالوش لازمه الكلام دا، عايزه تبعدي ابعدي

_أنا بقولك عشان ناخد خطوة في موضوعنا.

_يعني أنتِ بتلوي دراعي؟

_بلوي دراعك !! إيه الكلام دا يا مصطفى؟

_عايزة تتخطبي له، اتفضلي، هو أصلا شكله عَاجَبك.

بعد وصلة من التوبيخ، كنت فعلا متعجبة، لم أجد أي رد على كلماته واتهاماته، أنهى حديثه مغلقا الخط في وجهي، حاولت الاتصال به لكنه أغلق هاتفه أيضًا.

أكثر من أربعة أيام متواصلة لم يكن فيها هاتفه متاحًا، لم يكن هناك أي تفسير سوى أنه يتهرب من الزواج، لكني أوجدت له أسبابًا وأعذار، كنت دائمًا ألتمس له الأعذار والمبررات، كنت دائما أعتذر على أخطاء لم أرتكبها، على ذنوب لم أقترفها بعد.

أرسلت له رسائل عديدة لكن دون جدوى ، انتظرت ساعات كثيرة كانت تمر شهورًا ، وذات نهار قررت أن أتخلص من هذا الحب..

جلست علي شرفتي أنظر إلي مستقبلي الباهت، أحاول أن أركز حتى أجد أي ملامح له أو أي لون أتفهمه ، أفقت على نغمة الرسائل الخاصة بي، وجدت حروفا باردة

"وحشتيني.. "

بعد أسبوعين، تذكرني، تذكر تلك الفتاة الساذجة التي تنتظره .. نعم ساذجة!

بالتأكيد كان يجب عليه ألا يراني سوى فتاة ساذجة بعد أن قُمت بالرد سريعًا على رسالته دون أي تفكير،" أنت كمان وحشتني!! "

عاد وعُدت، وعاد الحبُّ البائس الذي كل يوم بحال، أُشفق علي نفسي كثيرًا كلما أتذكر هذا الكم من السذاجة ، كيف أقبل أن أعيش هكذا، كيف أسمح لنفسي أن أمحو كرامتي وأدوس عليها بقدمي!

كنت على يقين أن هذا الحب سينتهي يومًا، لكني تمسكت به خشية الوحدة.

كنت معه، أتقبله بكل تقلباته المزاجية، في يومٍ أحبه جدا وفي يومٍ آخر أكره وجوده بحياتي أحيانا يعاملني كأنني ملكة، وأحيانًا أشعر أنني جارية يمتلكها.

لكني كنت في جميع الأحوال أضعف من الرحيل، أو حتى مجرد التفكير فيه، وكأنني أنتظره هو كي يُشيع علاقتنا البائسة إلى مثواها الأخير.

تخيلت وقتها أن هذه التجربة هي الأصعب بحياتي وأنني لن أعيش قصة كمثلها، تمكن مصطفى من وضعي تحت ضغط عصبي لا يُحتمل، كنت أتمنى لعلاقتنا أن تنتهي في أقرب وقت، رغم أنها كانت قاربت على العام، وكل يوم أجد نفسي أتورط به أكثر، لكنني لم أقدر أن أبتعد.

****

إلى أمي الغالية

تحية طيبة وبعد،،،

لا أعلم رقم هذا الخطاب، لكني تخطيت العدد المسموح به، ولم أكلَّ يومًا، سأظل أكتب لآخر نفس في صدري، أعلم أنني أكتب بلا أمل لأنك لا تقرئين ، أعرف أنه كان من الممكن لمشاعرك أن تتحرك لو قرأتي ، لكني لا أستطع أن أرسل لكِ أي خطاب، أجد يداي تُمزق أوراقي بعدما أنتهي من كل خطاب.

أمي، دائما تقولي إنك عند علمك لحظة ميلادي أنني أنثي، بكيتِ وحزنتِ ولعنتِ حظك، كنتِ تقولين هذا كثيرًا، وأمام أي شخص، أبتسم .. نعم، أبتسم بقلب يتمزق، لا تعلمي حجم ألمي كلما رددتي هذه العبارة.

لماذا يا أمي؟ لماذا تلعني حظك لأجلي؟ لماذا بكيتي لحظة ميلادي؟ ماذا فعلت لكِ؟ أنا لم أذنب قط، ماذا فعلتْ لكِ طفلة لا تمتلك من القوة شيئًا؛ طفلة تصرخ تريد صدرك كي تستكين، وأنتِ سحقتيها بقدميك.

طوال مراحل حياتي تخبرينني بحسرتك علي إنجابك لي، زرعتِ داخلي ثمرة ألم، كلما كبرت، تكبر معي، أنا مثلك الآن أكره أنوثتي، أكره أي بنت صغيرة، أدعو كل يوم ألا أنجب أنثى، أكلَّ هذه القسوة يا أمي، لأنني أنثى !حرمتِ قلبي من عطفك، لأنني أنثى !سنوات طويلة ابتعدتِ عني، لأنني أنثى؟ ! لماذا تعاقبينني وأنا لم أختر؟ اسألي خالقي لم خلقني أنثى، عاتبي ربك، عاتبيه لماذا حرَّم وئد البنات؟

كنت أنا بالنسبة لكِ ابتلاء، سيجزيكِ الله خيرًا إن صبرتِ، لكنك لم تصبري يا أمي، كنتِ دائمًا ساخطة علي هذا الابتلاء.

أوجعتيني يا أمي، آلمتيني بالحد الذي لا يمكن لعقلك تخيله، لو كان في إمكانك أن تختاري نوع جنينك، فأنا أيضا، إن كان في مقدوري أن أختار أمًّا أخرى، كنت بالفعل سأختار غيرك.

" دامت قسوتك بخير"

ابنتك

هناك بعض التواريخ التي نمر بها تُسجل بذاكرتنا مدى الحياة، قد تكون تواريخ سعيدة، أو حزينة ، في كل الأحوال كلنا نهتم بتسجيل التواريخ، لكن كلاهما مؤلم، نتمنى طوال الوقت أن نفتح ذاكرتنا ونمسح التاريخ الذي يسبب لنا الألم، حتى التاريخ الذي يحمل ذكريات جميلة، يوجعنا كلما تذكرناه، نقول لأنفسنا بكل حزن " يااااه زي النهاردة كنا مبسوطين"، لا ينجو من هذا الألم سوى ضعيف الذاكرة، الذي لا يسجل التواريخ .. لا يأكله ندم على لحظة حزينة، ولا يبكيه شوق علي يوم سعيد.

عانيت طوال حياتي من اهتمامي بتسجيل التواريخ، كنت أتمنى أن أكون بلا ذاكرة، أو أن أنسى ما أريد .. لكن الحقيقة أن الذاكرة تقسو علينا أيضًا، تحتفظ دائما بما لا نريده.

في منتصف يوليو عشت يومًا لا يُنسى، من أقسى اللحظات التي مرت عليَّ، علمت برسوبي في عامي الثاني بالكلية، لا أخشى من الفشل، كنت أعيشه بشتى أشكاله وأنواعه .. وجدت نفسي في كلية لم أكن أطمح بها، لم يكن هناك فارق طالما أني لا أحبها، لكني كنت أخشي ردة فعل أهلي، أعلم أنَّ هذا الحدث لا يمر مرور الكرام، أبي وأمي دائمًا يعطون كل شيء حقه وأكثر، حتى بردة الفعل، وخاصة إن كان الحدث حزينًا، يعيشون الكآبة بكل مراحلها، تُسيطر الدراما بعمق الضمير على منزلنا.
دائما كانوا ينتظرون اي هفوة كي يمارسوا سياسة القوة معي، وتحقيق قانون كيف تُهين شخص وتضعفه، موجع جدا أن المقربون أول من يتمني فشلنا حتى لا نكن أقوياء..

أقسى كلمات التجريح والإهانة، التقليل من الشأن قدر المستطاع، التعمد في التجريح، التفنن في اختيار أنواع العقاب ، أبغض المشاعر تعرضت لها، لا أعلم كيف أمكن لقلبي أن يتحمل كل

هذا الكم من الألم .. أتحمل قسوة أهلي، أم قسوة الأيام ، والصدمات التي تُقذف عليَّ ككرات من لهب، كان من الصعب عليَّ أن أترك صديقاتي وأبقى وحيدةً أيضًا في مراحل دراستي.
تم مصادرة هاتفي ومنعي من الخروج نهائيًا، حتى لم يكن هناك وقت كي أبلغ" مصطفى "بما حدث، رغم حزني الشديد، كان هناك ضوء طفيف داخلي يُطمئن وحدتي، هو وجود مصطفى بحياتي.
مرَّ يومان وأنا أعيش بسجن" انفرادي"، أحمل همَّ" مصطفي "الذي لا يعلم عني شيئا، حتى جاءت إليَّ شيرين وهالة لمواساتي، واتصلتُ به من هاتف شيرين.
أخبرته بما حدث، كنت أبكي واحتاج يدًا تنتشلني من كل هذا الحزن، صدمني رده القاسي غير المتوقع:

_أنتِ إنسانة فاشلة أصلا، وأهلك ليهم حق في أي حاجة يعملوها.

_ايه اللي أنتِ بتقوله ده يا مصطفي؟ أنا مش أول وآخر حد يعيد سنة في الجامعة

_لا ، أنتِ مش قادرة تنجحي في حاجة، أنا مش عارف إزاي أنا مستحمل كل ده.

_مستحمل ايه ؟

_حنان أنا مش عايز أكمل.

صمتي وقتها كان يعني منتهى الدهشة، لم أستوعب ماذا يقول، لكنه استدرك..

_احنا ماننفعش لبعض، احنا مش شبه بعض في أي حاجه خالص، حاولت أغيرك ماعرفتش، لبستك الحجاب غصب عنك، خليتك تقربي من ربنا بالعافية، حتى تفكيرك ودراستك أقل مني، في فجوة كبيرة جدا بيني وبينك، أنا بتمنى لك التوفيق، ودايما هدعيلك.

لم أرد علي أي كلمة، حتى دمعتي لم تسقط، أغلقت في وجهه الخط بدون أن أنطق حرف .. ينهون الحب بكل بساطة، يطعنون فيها قلوبنا التي قدمت لهم كل شيء، والأصعب من ذلك مبرراتهم السخيفة ووعودهم التي لم يتحقق منها شيء..

حتما الذي يُنهي أي قصة حب هو الطرف الأقوي، يقرر فجأة أنه لابد أن يضع لهذه القصة كلمة النهاية ويُسدل الستار، من أين أخذ الحق لهذا دون الرجوع للآخر؟ ومن أين استمد شرعيته في الحكم بالإعدام علي الآخر؟، لكن ساديته تجعله فرحًا متلذذًا بأنَّات الطرف الآخر.
رحل، وترك خلفه كل شيء ، وبعد أن كنا نتقاسم كل شيء، ترك لي طقوس الفراق أعيشها وحدي، ولم أجد سوى الاعتياد علي رحيله، اعتياد يصحبه ألم.
فالنسيان أصعب شيء في الحياة، ما أقساه!!
صعب علي أنثى أحبت رجلا، وتعشمت به خيرًا أن تنساه وترضي بالقدر، تذهب هنا وهناك لتتخلص من محبته، لكن هيهات.
الحب مرض والشفاء منه يمر بخطوات.
فالأولي تبدأ بالرحيل، ألم، حسره، ندم، دموع، شوق، وجرح.
ندق كل أبواب النسيان حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة .. تلك الأيام الأصعب، شعور مؤلم عندما ترى كل شيء ينهار، وكل حلم يصبح سراب، ألم حد الموت!، تمر الأيام بساعاتها الطويلة بين ألم واشتياق وحنين، حتى نخضع للقدر ونستسلم ونقتل أي بادرة أمل بداخلنا.

ثم تأتي المرحلة الثانية، وهي الذكريات، تمر الأيام بكل الملامح، وكل الوجوه، وتظل الذكري هي عنوان الحياة، نبكي تارة ونشتاق لأيام ولَّتْ، ونضحك على سذاجتنا تارة أخرى، لكن حتما تبقى الذكريات مؤلمة و نتمنى كل لحظة أن ننساها ..

بالفعل قد تطول هذه الفترة، حتى نصل الي المرحلة الثالثة والأخيرة، بعد كل هذا ومع الأيام تبقى هذه القصة مجرد طيف يمر بأفكارنا، عندما نمر بمكان كنا نجلس فيه، أو تشابه في ألفاظ يذكرنا بجمل سابقة أو نرى شيئًا يُعيد إلينا الحنين إلى شيء مماثل حدث في الماضي البعيد، طيف عندما يأتي نضحك فقط دون ألم دون اشتياق، نبتسم وعندها نقول) يااااااااه كم كانت أيام.. (

أقنعتُ نفسي أني قوية، وسأقدر على الابتعاد عنه، وتمكنتُ من تجاوز هذه المحنة، وقفت بجانب نفسي وأخذت بقلبي نحو برِّ آمن، شعرتُ تلك المرة أن قلبي أصبح قويًا، لم يستجب للحزن، أطحتُ بالحجاب دون تردد.

أخبرت نفسي أنَّ الأحلام الوردية التي تمنيتها لم تأتِ علي أرض الواقع، الفارس والحصان الأبيض أسطورة من ضمن الأساطير، آمنت أنه لا يوجد شيء اسمه" حُب"، كل هذا سراب ووهم..

قررت أن أتزوج كعادة مجتمعنا الشرقي، زواج تقليدي، وأعيش مثل آبائنا وأمهاتنا.

مرت الأيام كعادتها، حاولت أن أتقبل رسوبي وبقائي وحدي، حاولت أن أُحايل عتمة الليل ليُخفف من ظلمته، تلك الخيبات التي تأتي على عجل تجعلنا أقوى مع الوقت.

أحببت وحدتي أكثر و ارتبطت روحي بها، خاصة بعد ابتعادي عن صديقاتي، نعم لم نفترق، نتقابل في محطة المترو كل صباح، ونجلس معًا بكافيتريا الجامعة، لكني في الحقيقة كنت

أحضر محاضراتي وحدي، وأذاكر بمفردي، حتى في معظم الأحيان كنت أعود إلي منزلي بدونهم ..

اعتمدت علي نفسي، لم أجد شخصًا أوفى من وحدتي، جلست أنا وهي في اجتماع سري بغرفتي، نضع شروط علاقتنا، اتفقت معها أن تكون صديقتي المُخلصة، أن تُخفف من قسوتها عليَّ، أو حتى لا تقسو مطلقا، أخبرتها أنني طرقت كل الأبواب كي أبتعد عنها، لكني أيقنت في النهاية ألا مفر منها، صرحت لها بأنني كنت حقا أكرهها، وحقا لا أطيق لحظات لقائنا، قلت لها إنني رفعت راياتي البيضاء، وعدتها أنني سأحبها جدا، وأنني سأختلس الساعات كي أبقي معها، لكني في مقابل ذلك طلبت منها أن تكون رحيمة بي، وتخفف عني آلامي، أنهينا معاهدة السلام بيننا، اتفقنا، وقررنا ألا نختلف أبدًا.

****

في أواخر نوفمبر، عدتُ إلي منزلي بعد أن أنهيت يومي الدراسي، فتحت باب شقتنا، وجدت أمي تجري إليَّ وتستقبلني بابتسامة لا أراها إلا في أوقات أعرفها، تعجبت قليلا !وسألتها:

_إيه يا ماما في إيه؟

_خبر حلو اوووي

_خير؟

_جالك عريس زي الفل، جار طنط آمال.

_عريس إيه !! وشافني فين دا؟

_لا هو لسه ماشفكيش، بس طنط آمال ورته صورتك وعجبتيه، وطلب إنه يشوفك.

كنت أنظر إليها في دهشة، عقلي يخلط عشرات الأفكار، صمتتْ أمي قليلا، وتابعت، بنفس الابتسامة:

_بتقولِّي إنه شغال ظابط شرطة، وعنده شقة حلوة أوي في مدينة نصر، وعربية، وناس مبسوطين أوي، أنا قلت لأبوكِ ووافق، واديت لآمال ميعاد على بكره، هنقابله في نادي أو في أي مكان.

رغم أنني كنت وقتها أحن لـ مصطفى، لكنني لم أرفض هذه المقابلة، وصمت، وتخيلتْ أمي أن "السكوت علامة الرضا."

دخلت غرفتي، وجلست علي حافة سريري أفكر، هل هذا قرار سريع وخاطئ؟ !هل ستنجح هذه العلاقة؟ هل سيكون ذلك الشخص الغامض هدية السماء لي؟ أسئلة كثيرة، لا أجد لها إجابات وافية.
لم أترك مجالا لعقلي أن يفكر كثيرًا، وافقت على هذه المقابلة، ورتبت أمي الميعاد سريعًا في وقت قريب.

قبل ساعة من لقائنا، أخذت حمامًا دافئًا، واخترت من بين ملابسي الأفضل .. أتذكر، بلوزة حمراء اللون شيفون، بها فصوص بيضاء صغيرة علي منطقة العنق، واسدلت شعري على كتفي، كي أبرز معالم أنوثتي أكثر.

أمي وصديقتها اتفقتا على أنْ نتجمع في أحد الأندية القريبة .. دقات قلبي تتصاعد، ولا أعلم لما؟ !دخلتُ وأمي نبحث عن صديقتها، بعد أقل من ثلاث دقائق، رأيتها تجلس ومعها شاب وسيدة، أشرت لأمي عليها، واتجهنا لهم مباشرة.

ألقيت عليهم التحية، ولم أرفع عيني كي أنظر له، جلست وأنا في قمة خجلي، لكنه كان ودودًا، شارك أمي وصديقتها الحديث، كانت أمه بين الحين والآخر تجعلني أتشارك معهم الحديث.
تقريبا نصف ساعة مرت، ومن ثم طلبت" طنط آمال "من أمي أن تسمح لنا أن نجلس معًا بمفردنا، وعلى الفور وافقت أمي وطلبت مني أن أجلس معه أمامهم.

"أحمد "ملازم أول بأحدي أقسام القاهرة، ذو عينين خضراوين، ووسيم لحد ما، لا أبالغ إن قلت إنني شعرت بارتياح غير عادي عندما نظرت إليه.
تحدث معي في كل شيء عن حياته، كان علي قدر كبير من العفوية والتلقائية التي تجعله يدخل قلب أي شخص سريعًا.
كان انطباعي الاول عنه، أنه طيب وصادق، تحدثنا رغم خجلي، شعرت أنني أعرفه منذ سنوات.

انتهي لقائنا سريعًا، وكنا علي وعد باللقاء، طوال طريقنا إلى المنزل وأنا أفكر في هذا القرار، لم تترك أمي لحظة لي كي أفكر جيدًا، ظلت تخبرني أنه شاب رائع وفرصة لأي بنت.
طلبت من أمي أن تتركني أفكر جيدا دون ضغط، لكننا فور عودتنا إلى منزلنا، وجدت صديقة أمي تتصل بها، وتخبرها أنه موافق جدا ويتمنى أن أوافق أنا أيضًا لتتمَّ خطبتنا في أقرب وقت.

دخلتُ غرفتي لأجلس كعادتي مع نفسي أفكر، سألت نفسي لمَ الخوف؟ هذه المرة لا يوجد أي خوف ، كنت كل مرة أخاف علي نهاية حبي، أخشى نهاية العلاقة، دائما أعيش في قلق من كل شيء، أبذل جهدا مُضنيًا كي أجعل قصتي رسمية وشرعية، لكن هذه المرة هو الذي طرق بابي، وهو شاب يملك مواصفات مناسبة لأي بنت.

لمَ الخوف !أصبح الخوف مرضًا لا يمكنني التخلص منه، أخاف من أي شيء ومن أي شخص، لم الخوف !عسى أن يكون هذا أفضل مما مر، عساه أن يكون هو الشخص الذي سيعوض قلبي كل ما ألمَّ به، عسى أن يكون طبيب جراحي!

توكلت علي الله، وقررت الموافقة، وقررت أن ألقى الذكريات السابقة خلفي وأمضي قُدمًا .. مجددًا صفحة بيضاء في حياتي، علي أمل أن تكون سبيلا إلى السعادة المطلقة.

بعد يومين، قام أحمد وأهله بزيارتنا، للتعرف علينا أكثر، أحببت أسرته الصغيرة المكونة من أخت أكبر منه، متزوجة ولديها طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات، وأخ يصغره بسنتين، بعد دقائق طويلة من الحديث المفصل عن الطلبات والمتطلبات الزوجية، تم الاتفاق على كل شيء ومن ثمَّ تمت قراءة الفاتحة على هذا الاتفاق.

طلب مني أن نجلس معًا بالشرفة، أول حديثه هنَّأني بخطبتنا، وعبر عن سعادته لهذا الحدث المهم بحياته، أخبرني أنه يطمح بحياة جديدة، وبداية تطوي معها ما مضى.

لحظات دقيقة كنت أسمعه بشغف، ثم قوت له جملتين تحملان معاني كثيرة جدا..

"أحمد أنا كمان نفسي أبدأ صفحة جديدة واسيب أي حاجة فاتت تعبتني جدا، ودايما كنت بدعي ربنا إنه يعوضني خير، لو أنت مش هتقدر تعوضني اللي فات، فياريت تقولي من البداية، لأني مش حِمل أي وجع تاني أبدا."

لم يُعطِ فرصة لعقله أن يستوعب كلماتي البسيطة، التي رغم بساطتها حملت بين حروفها ثقلا ضخمًا، أجاب مسرعًا، بابتسامة عريضة، ممسكًا بيدي:

"أوعدك إني هعوضك عن أي تعب شوفتيه، اللي حتى مايهمنيش أعرف هو إيه."

****

بين سطور الماضي المملوء بالتعب، والذكريات التي لا تمحوها الأيام والسنين، أتذكر لحظات تطاير ضفائري في الهواء الطلق، ضفائر اخترقتها أصابع سوداء، لتفسد تناسقها الطاهر.

أتذكر يوم أن كنت في الحادية عشرة من عمري، سنوات قليلة يمكن عدها على أصابع اليد، لم أقترف من الحياة خطأ بقدر مثقال ذرة، كان كل ما أملكه وقتها، هو عرائسي البلاستيكية.

لا أعلم وقتها طبيعة أي شيء من حولي، لا مصطلحات ولا مفاهيم أعي لها، الحياة كانت تُمثل لي، قصاقيص من الأقمشة كي أصنع بها فستاين لعرائسي، حتى لعبي في الطرقات، أمي حرمتني منه، لسبب لم أفهمه بعد " مافيش بنات تلعب مع ولاد "، كنت لا أعي وقتها ما الذي يفرق بين الذكر والأنثى، اعتقدت أن الفرق بينهما الشعر الطويل والقصير فقط.

في الخامسة عصرًا، أخبرتني أمي أنني سأجري عملية بسيطة، سألتها ما هي، لم تُجبني، أخبرتها أني بخير ولا أشكو من أي شيء، لكنها طلبت مني أن أصمت، وطمأنتني بأن كلَّ الصغيرات تقوم بأجراء مثل هذه العملية ، لم أُبالِ، ارتديت فستاني القصير، وذهبت معهم بسيارتنا..

عيادة قديمة، روائح كريهة، الحوائط والأرضيات متسخة، ممرضة وجهها عابس مخيف .. همست في أذن أمي أتسآئل عن هذا المكان، أخبرتها بإنني خائفة، لكن كل هذه المحاولات ليس لها أهمية.

جاء الطبيب الجزار، يطلب منا الدخول لغرفة العمليات .. غرفة كل شيء بها مُلطخ بالدماء، ارتعشت من الخوف، بكيت، وأنا أتشبث بملابس أمي، لكن لا أحد يهتم.

لحظات قليلة أم كثيرة لا أعلم، غبت عن الوعي ولا أعرف ما الذي جري لي، أو ما الذي سيتغير بعد هذه العملية، لا أعرف أي شيء.

بمنتهي البراءة ذهبت مع والديَّ إلى مثل هذا الجزار، لا أعلم ما الذي سيجري بي، وعندما أُفيق أجد قدمي مفتوحة، وتغطي عضوي التناسلي قطع من القطن !

طفلة تبدأ حياتها بكل أمل وبراءة، تجد في لحظة أن الكل انتهك خصوصيتها، تجد الكل ينظُر الي نفس المكان الذي ظلت أمُها تُحذرها من الاقتراب منه!

من الذي منحهم الحق بانتهاك أعضاء طفلة، كيف سمحوا لأنفسهم أن يخترقوا جسدا هزيلا هكذا، من الذي شرع لهم ببتر جزء من جسد آدمي له كل الحق في جسده، على أي أساس حددوا أهمية ذلك الجزء بالنسبة له!

بسيطة هذه العملية، لا تأخذ إلا بضع دقائق، يخترق" المِشرط "الحاد، أرق وأصغر منطقة بالجسد، يا لها من عملية جراحية سهلة ومُربحة، يقتلون بها كم هائل من الصغيرات، ومن ثم يدمرونهم كلما نضجوا..

مشاهد تكررت في كل الافلام والمسلسلات، كلنا نتحث عن مثل هذه الجريمة، لكن لا أحد يمكنه أن يشعر بحجم الألم الذي أعاني منه كلما تذكرت مثل هذا اليوم..

ملعونة هي أفكارهم، ملعونة هي موروثاتهم وثقافتهم، ملعونة هي أعرافهم..

في اليوم الذي كان من المفترض أن احتفل مع" أحمد "بمرور عامٍ علي خطبتنا، احتفلت وحدي بفك أسري من هذا المعتقل ..

تركته، استطعت بكل ما أوتيت من قوة أن أثور على هذا الجحيم، تمكنت من التخلص من مستقبل مبهم، تشوهت معالمه.

عام مرَّ علينا، لا أبالغ لو قلت إنَّ هذه أسوأ فترات بحياتي، لم أكن أتخيل أنني من الممكن أن أعيش أصعب مما مررت به.

كنت أحلم أن أجد حضنًا يسع آلامي، لم أكن أتمنى سوى يدٍ تنتشلني من كل ذكرياتي، يد تربت على كتفي بحنان، لم أطمحْ في أكثر من حب، عطف إحتواء..

نعم أخذت من الحياة خبرات كثيرة على مدى عمري الصغير، تعرفت علي ثعالب في هيئة بشر، قلبي تحجر من كثرة الصدمات وأصبح لدية مناعة حقيقية ضد الصدمات الجديدة، لكنني لم أتخيل أنني من الممكن أن أتعرف علي شخص أكثر وضاعة ممن سبقوا، أمر مخزي ..

كم من آمال تحطمت على جدران الاحتياج !كم من فرحة وهمية تعلق قلبي بها!

أجلس علي أرضية غرفتي، أسند ظهري علي حافة سريري، ظهري الذي انحني من كثرة الخيبات، قدمي ممددة أمامي، وصوري مع أحمد تحيط بي، ذكرياته لم تكن يومًا مُثيرة، طوال سنوات فراقنا، كنت دائما أهرب من ذكرياتي معه .. من كل تجاربي السيئة، كانت ذكرياتي معه الوحيدة التي أخشى تذكرها.

كل صوري معه كان ينقصها شيء، حاولت وأنا معه أن أبحث عنه، أن أفهمه، لكني فهمته بعد عام،" الشعور بالأمان."

ارتديت فستانًا أحمر بسيطًا، به قليل من التطريز علي الكتف، ووضعت تاج مذهب صغير علي رأسي، احتفلنا بحفل خطوبتي بمنزلي، وسط أصدقائي المقربين وقليلٍ من أقاربي، وهو أيضًا، اقتصر معازيمه علي أصدقائه المقربين، وجوه مبتسمة، تُرسل لي التهاني كلما نظرتُ إليها، الزغاريد تملأ المنزل، كلما رنت واحدة، أجد بعدها بثوانٍ بركانا من الزغاريد قد يصل صداها الي آخر الحي، الكل يُغني ويصفق،

حتى أمي التي لا أتذكر أنها في يومٍ غنت، كانت تغني وتصفق بحرارة، سعادتها فاقت الوصف، وكأنها أزاحت من علي قلبها حِملٍ كالجبل، أبي الذي لم أجده يضحك إلا مرات قليلة، وجدته في هذا اليوم، يبتسم ابتسامة عريضة، لم تختفِ طوال الحفلة.

يعتقد البعض أن العروس في هذا الوقت لا ترى أحدًا من حولها، ويكون عقلها تائه بين كل هذا الصخب، لكن في الحقيقة، أنها في هذا التوقيت، تكون مدركة لكل شيء من حولها، لدرجة يمكنها أن تسمع همسات المعازيم .

كانت وقتها مشاعري مختطلة، لا أفهمها، ممزوجة بين السعادة والخوف، انتهى ذلك اليوم بعد ان ارتديت دبلة الخطوبة، انتهى بكل مافيه، سهرت أنا و أحمد حتى الساعات الأولي من الصباح، نتحدث معًا علي الهاتف، نضحك، ننم علي معازيم الحفل، نرسم مستقبلًا، يتحدث كل منا عن الآخر .

بالطبع كان إحساسًا مختلفًا بكل المقاييس، وعلاقة تختلف تمامًا عما سبق، لأول مرة أتحدث مع رجل، بصوت عالٍ، دون أي خوف، أو قلق من أن يسمعني أحد .

مرَّ شهر علي خطبتنا، كنت أشعر معه بشعور جديد، أحببت علاقتنا جدًا، يومًا بعد يومٍ يكتشف كلا منا شيئا جديدًا في الآخر، كنت على يقين أن أي شخص لا يخلو من العيوب، وكنت علي أتم الاستعداد أن أتقبل أية عيوب به، إلا أن يكون خائنًا أو كذابًا .

دائما إذا أردتَ أن تعرف الوجه الآخر لشخص، فقط اجعله ينفعل ويفقد أعصابه، وهذا ما فعلته أنا معه دون قصد، في أول موقف حقيقي بيننا، رأيت وجه الآخر.

كنا بأحد المولات التجارية ومعنا أمي وأخي يسيران أمامنا، رن هاتفي برقم غير مسجل، مد يده كي أعطيه الهاتف ليرد هو، لكني ضحكت وأدرت ظهري له، كنت أمزح معه وقتها، اعتدلت لأنظر له، وجدت وجهًا عابسًا لم أره منذ عرفته، ابتسمتُ له حتى أُنهي هذا الفاصل

السخيف، لكنه انفعل في وجهي، وحذرني من تكرار هذا الموقف مره أُخرى، أخبرته أنني أمزح، لكنه لم يهدأ، وتركني ليسير مع أمي وأخي .

لم يكتفِ من هذه الحاله طوال مشوارنا، لكنه استكملها أيضًا طوال الليل، حاولت أن أُغيِّر هذه الحالة المبالغ فيها، لكنه أصرَّ على أن يمضي اليوم هكذا .

منذ ذلك اليوم وأنا أخشاه، كشف عن وجه حقيقي، وجه قاسٍ بالمعني الحرفي للكلمة، لم تكن هذه أول مرة، لكنها كانت البداية، ودائما البداية تكون ضعيفه ثم تقوى وتقوى، كنا نتشاجر معًا كل يوم تقريبا، لا لا حتي لا أبالغ، نتشاجر يومًا ونتخاصم أسبوعًا.

أكره الخصام، أخبرته هذا مرارًا وتكرارًا، لكنه كان يستمتع به .. أخبرته أني لا أحب الحزن، وكنت أنام كل يوم بصحبة دمعي، كل يوم مستوى انفعالاته تزيد، صوته يعلو أكثر، استخدامه للكلمات الجارحة يزيد .

في أحد نقاشاتنا المشتعلة، قام بتوبيخي، صُدمتُ وأغلقت الهاتف في وجهه، على الفور اتصل بأبي ليشكو من فعلتي، كان يعلم أني لا أقدر علي إخبار أهلي بأي شيء، وكان يعلم أنهم دائما سينصفونه عليَّ، ودائما أنا المخطئة أمامهم..

كل شيء به يتغير أثناء انفعالاته، وجهه، صوته، نظرته، كل شيء فعلا، أشعر حينها أنه شخص آخر.

تلك اللحظات الصعبة، لن تمر هكذا أبدًا، ستجعل منك شخصًا أقوى، شخصًا قادرًا على الحياة، قادرًا أن يقف أمامها وجهًا لوجه، لا أخشى فراق أحد بقدر ما أخشى تلك اللحظات التي تتبع الفراق .

كنت أعلم أنه يخونني، أعرف كل أنثى يعرفها، عندما أتصل به وأجد هاتفه على خاصية الانتظار، أعرف أنه يتحدث مع أخرى، أعرفهم بأسمائهم وأشكالهم، أجد هاتفه دائمًا يرن ويرفض الرد أمامي .. كنت صامتة دائمًا لكني لم أكن كفيفة، فضلت الصمت حتى لا أُهين كرامتي معه .

لم أجد أحدًا أشكو له، فيقف جانبي وينصفني عليه، رغبتي في ترك بيت أهلي كانت تُلح عليَّ دائمًا بالصمت، أتغاضى عن أفعاله لعله يتغير، غالبًا كنت ألجأ لأُمه أشكوه إليها، كانت تطلب مني دائمًا أن أصبر، أخبرتني أنه يحبني، وسيتغير بعد الزواج .

خلال فتره خطبتنا، سمح لنفسه أن يتقرب مني جسديًا، وأن أتحمل كل القلق من خوف رؤية أمى وأبى لي، ومن تأنيب الضمير الذي لا يتركني .. كنت أخبره بضيقي، وان لكل شيء وقته، لكنه كان يرفض ويؤكد أن هذا حقه الشرعي، ولا أعرف من الذي سمح بهذا الحق، ومن الذي شَرَعه .. دائمًا ما كان هذا سبب خلافاتنا، يتهمني بالبرود أحيانا، وأحيانا أخرى يتهمني بأنني لا أحبه، يُخبرني أنني السبب في علاقاته الأخرى، وأني يجب ألا ألوم أحدًا سوى نفسي، لكن خوفي مما مضى جعلني أخاف من أي أحد، أحيانًا كنت أبرر لنفسي تجاوزاتي معه على أنها أيام قليلة تفصلنا عن الزواج !

أول من قَبلني، أول من عانقني، أول من شعرت معه بمشاعر لم تمر عليَّ من قبل، دائمًا كنت أهرب من أي وقت يجمعنا وحدنا، وهو دائما ما كان يتحين الفرص ليقترب مني .

أقنعني أن تجاوزاته معي تناسب علاقتنا، لم أسمح له بالتمادي والوصول للعلاقة الكاملة، دائمًا كنت أشعر بالندم، وبالفعل لا خير في متعة يأتي بعدها ندم.

أيقظ بي مشاعر وأحاسيس لم أشعر بها طوال حياتي، مشاعر الرغبة التي تربط دائما الرجل والمرأة، أحببتها معه رغم خوفي منها، دائما كانت تربطني به أكثر، رغم يقيني أن حياتي معه ستكون تعيسة، علاقتي معه أصبحت حبلًا يلتف على عُنقي، أختنق به يومًا بعد يومٍ.

كل ما مضى من ألم وحزن كان نقطةً في بحر جراحي وآلامي خلال فترة علاقتنا .. تركته أكثر من مرة، لكني كنت أعود له بعد ضغطٍ من أهلي وأهله.

في كل مرة أبتعد عنه كان يعود ويعتزر، و يعدني أنه سيتغير من أجلي، دائما ما كان يستغل خوفي مما حدث بيننا، ويخبرني أنه يجب أن نبقي معًا .. كنت أعود له لأنني أرفض أن اقترب من أي شخص غيره..

لم أحبه يومًا، أحببت وجوده فقط، رغم أن كل يوم يمر يتزايد كرهي لوجوده بحياتي، ألعن الظروف التي جمعتني به، أصبح بالنسبة لي" السجَّان "الذي لا يمكنني الهرب منه.

يوم بعد يوم، شهر بعد شهر، وأنا أختنق، أتهرب من ميعاد الزواج، أبي وأمي يريدان أن أتزوج بعد خطبتي بيوم، كل يوم أسمع عبارات قاسية منهم،

"يا رب هوِّن بقى"،" امتى نقول هم وانزاح"،

رغم أنني أيضًا كنت أنتظر اليوم الذي أتحرر فيه من سجنهم، لكنه كان سجنًا آخر، سجنًا أبديًا لن أتخلص منه إلا بالموتِ.

حيرة وقعت أنا بها، أبكي كل ليلة على أحلامي التي تتبخر يومًا بعد يوم، تحملت منه أكثر من اللازم، كنا بإحدى المرات نتشاجر معا أسفل منزلنا، انفعلت لأول مرة، صرخت بوجهه دون تفكير، وجدت صفعته على وجهي بيدٍ باردة، منذ هذه اللحظة قررت أن أنهى هذه العلاقة، نظرت له وخلعت دبلتي، وألقيتها على الأرض..

كان يعلم أن أهلي لن يقفوا بجانبي أبدًا مهما حدث، و يعلم أيضًا أنني لن أتحدث أبدًا عن أي شيء يفعله، لكن هذه المرة أخبرتهم بما فعله، تحدث أبي معي ليعرف ما الذي حدث، وكالعادة كنت أنا المخطئة..

_بابا ده مد ايده عليّا واحنا لسه مخطوبين!

_عنده حق،أنتِ اللي مُستفزه ولسانك طويل.

_أنا ماعملتش حاجه هو اللي أسلوبه وحش.

_لا أنا عارف إنك قليلة الادب وبتعصبيه وبتخرجيه عن شعوره.

_ماشي أنا كل ده فيا، وعايزه أسيبه.

_لا الراجل زي الفل، وإحنا مش عيال معاكِ.

استكملت أمي الحديث:

_تسيبيه ليه؟ شاب زي الفل، يا ختي اتيلي أنتِ لاقيه، احنا خلاص هنحدد ميعاد الجواز.

_أنا مش هتجوزه، أنا مش عايزاه.

_آه أصل أنت مش عايزه تتجوزي، عايزه تفضلي ماشية على حلِّ شعرك كدا.

رغم نفادِ المائة عذرًا، ورغم عدم قدرتي على الاستمرار معه، إلا أنني كعادتي أضعف من أن أُواجه أحدًا برغباتي، رفعت الراية البيضاء للقدر، أقنعت روحي أنني خُلقت للحزن، عشت سنوات عمري السابقة وأنا راضية علي أمل أنني سأجد أحدًا في يوم يعوض أيام حزني وتعبي، أقنع نفسي طوال الماضي أنني سأجد الطريق يومًا، وستكتمل أحلامي، لكن أحيانا تخوننا أحلامنا وأمنياتنا،
على لحن أغنية" إليسا"، أندب حظي..
" آهي يلا عيشة والسلام، دا كتر الكلام وياه مابيأثرش وبقول زي بعضو"

حاولت أن أتحدث معه كي يشعر بي، بكيت له حتى يلمس ألمي بيده القاسية، ذكرته بوعده لي عندما طلبت منه أن يتركني إذا لم يستطع إسعادي، قسوة قلبه التي لم أجد لها مثيلًا، لم أسمع منه كلمة حب، تجريحه لي بأقبح العبارات، خيانته لي وعلاقاته المتعددة، تَحَكُّمه في تصرفاتي ومظهري وعلاقتي، الشك المريض الذي أحاطني به، دائما كان يمسك هاتفي ويبحث بمكالماتي

ورسائلي، غِيرته من كل ما حولي حتى صديقاتي الذي قنَّن علاقاتي بهم، وأصبحت أراهم كلَّ حين وحين، أبعدني عن جامعتي بحُجة أنَّ معي أربعة مواد فقط.

سجن .. كنت أعيش بسجن، كل يوم تضيق جدرانه الأربعة عليَّ، أصحو كل يوم على كابوس يفزعني، أجده يخنقني بقوة، جعلني أعيش بمشاعر مقيتة، مشاعر لا أتخيل أنني سأعيش مثلها بحياتي، كل شيء سيء في الحياة شعرت به، حتى الشعور بالوضاعة وتأنيب الضمير جعلني أشعر به، شعرت لأول مرة أنني عاهرة، رغم أن علاقتي به لم تتخطَ حواجز الخطبة، لكني فقدت احترامي لنفسي كلما تذكرت أنني تنازلت عن كل مبادئي من أجله.

****

مرت الأيام هكذا كعادتها لا تنتظر أحدا، أنهيت عامي الدراسي المشؤوم، أهلي وأهل" أحمد " حددوا موعد الزواج في شهر يناير أول العام الجديد.
لم تكن هناك اي ذكرى أو مناسبة نحتفل فيها معا مثل أي اثنين مرتبطين، في كل مناسبة كان لها ذكري سيئة، وكعادته دائما يفسد أي شيء كان من الممكن أنْ يكون جميلا.

كنا في أوائل ديسمبر، يومان فقط علي مرور عام على خطبتي وأحمد، كنت أتمنى وقتها أن يُفاجئني بأي شيء يطمئن قلبي، شيء يمنحني طاقة لاستكمال رحلتي معه.
قررت ألا أخبره بهذا اليوم حتى أعرف هل سيتذكره وحده أم لا، اتصل بي بمنتصف الليل ليخبرني أنه يريد أن يتحدث معي في موضوع مهم، اعتقدت أنه يحضر لي مفاجأة.
ثرثر بكلمات كثيرة وحديث طويل لم أفهم منها شيئًا سوى أنها مقدمة لموضوع.

_بما إننا قربنا نتجوز في حاجة لازم أتأكد منها عشان أطمن.

_حاجة اية؟

_أنا عايز اتأكد أنتِ بنت ولا لا.

انفجرت ضحكاتي بطريقة تلقائية:

_لا أنا ولد مش بنت ، أنتَ مش شايف ولا ايه.

_أنا مش بهزر، أنا بتكلم جد.

دخلت في نوبة من الضحك الهستيري، كنت حقا لا أفهم قصده المشين، ظل صامتًا، حتى أنهيت ضحكاتي:

_على فكرة أنا مش شايف إن ده وقت هزار وسخافة.

_سخافة !طيب اتفضل حضرتك المايك معاك.

_أنا طوال علاقتنا وأنا محتاج أطمن إنك لسه بنت، الشك هيموِّتني ومحتاج أطمن.

_أنا مش فاهمه، والله أنت بتتكلم عن ايه؟

_لا ماتحسسنيش إنِّك هبلة يعني ومش فاهمة أنا بتكلم في إيه!

_أنا فعلا والله ما فاهمة.

_مممممم طيب أنا عايز أتأكد إنك بنت يعني إنك عزراء.

ارتخت عضلات وجهي من الابتسامة العريضة التي كانت تحملها شفتاي، لم أنطق، لثوانٍ قليلة، مرَّ شريط فيديو به كل الأيام والشهور التي جمعتني معه، كل لحظات الألم واليأس، كيف أقدر طوال اثني عشر شهرًا أن أكون قطعة من الإسفنج، أمتص كل هذه الإهانات وأخرجها ليلا علي وسادتي البلهاء !كيف تجرأ أن يطلب مني هذا الطلب !إلى أي مرحلة وصلنا نحن !لماذا؟ لما؟ كيف؟ متى؟، عقلي مشوش وسط هذا الكم من الأسئلة، شعرت وقتها بحقنة من المخدر تتخلل شراييني وأوردتي..
أحلام !! لا لا أنها أضغاث أحلام، ما الذي فعلته أنا بحياتي كي يحدث كل هذا لي !ما الذنب الذي فعلته!

_أنا مش شايف أي مشكلة فاللي بقوله، أنا من حقي أطمن، إحنا هنروح لدكتوره ومن غير ما أي حد يعرف أي حاجة، علشان أرتاح..

****

غشاء سميك أو رفيع، قوي أو ضعيف .. غشاء يتحكم بكافة العقول، قطعة من الجلد لا تتجاوز السنتيمترين تسيطر عليَّ عقيدة ومبادئ مجتمع كامل، مجتمع اختصر كل شيء في ذلك الجزء..

جزء دمر أجيال كثيرة، أربعة أو خمسة قطرات دماء تُحدد هوية البنت، قطرات من الدماء تُطمئن الرجل والأهل، غشاء كان السبب في سلبها إحساسها بالأمان، حرمها من الحياة، مجتمع زرع بها خوف لا ينتهي، جعلها تضع أقفالًا من حديد علي ذلك الجزء،" ممنوع الاقتراب .. "ظلت طوال حياتها تفكر كيف تحمي هذا الشيء لكي تُسلمه لسعيد الحظ الذي سيطير من الفرحة ويشعر برجولته وقتها .

"العَجل غلط علي البنت "،" البنات غلط تشرب قهوة"،" خلي بالك وأنتِ في الحمام"،" أوعي تقعي"،" خدي بالك من قعدتك"،" بلاش بناطيل ضيقة!!!! "

هاجس مرضي، يظل يطاردها، جعل فكرة الزواج مرعبة بالنسبة لها، لمجرد شعورها بأنها لم تحافظ عليه جيدا، أين عُذرية الرجل حينها؟ !الغشاء يمنع البنت أن تكون لها أي علاقة حميمة غير الزواج، لكن الرجل ليس له مثل هذا الغشاء، الذي يمنعه من ممارسة أي علاقة أيضًا!

فمعنى هذا أنه مسموح للرجل أنَّ يفعل ما يحلو له، علي عكس البنت !المجتمع هو من قرر أن يسلب كل شيء من الأنثى، ويمنح الرجل كل الحق، حلل علاقات الرجل، وحرم علاقة الأنثى ! رغم أننا سنقف أمام الله سواسية، سيحاسب الله كلانا نفس الحساب .. مجتمع يتحدث عن الدين وأنه يطبق شرع الله في الأرض، لكنه في الحقيقة كل ما نعيش به هو" مجتمع ذكوري متعفن " خالٍ من العدل الإلهي.

مجتمع لم يشعر قط بالصدمة والخوف التي تعيش بهما الأنثى، عندما تستيقظ وتجد قطرات من الدماء وهي تعلم أن هذا ليس ميعاد دورتها الشهرية.

عُذرية !عندما تتلخص كل مفاهيم ومصطلحات كلمة" عُذرية "في هذا الغشاء !ما أسهل مثل هذه العمليات التي تعيد هذا الغشاء، وهناك فتيات تظل عذراوات برغم قذارة أفعالهن، لم يمنعهن هذا الغشاء من ممارسة أفعالهن الجنسية المُخلة، لكن حين يتزوجنَ، يفرح الزوج بعفتهن، ذلك المخدوع، الذي غيَّب عقله قطرات دماء.

العُذرية ليس بمثل هذا الغشاء، والعُهر ليس بالجسد فقط، العُهر في العقل والروح والحواس..

طوال حياتي وأنا أعيش في خوف، أخشى ألا أنتبه إلى تحذيرات أمي، وأن أكون قد أنهيت تواجد هذا الغشاء دون قصد، أتخيل هذا اليوم، وإن كان هذا التخيل يُميتُني.

لم أتخيل أنني ممكن أن أعيش الخوف في فترة خطبتي، لم أتخيَّل أن يأتي رجل ويطلب مني أن يكشف على عُذريتي !علاقاته ونزواته الوضيعة جعلته لا يميز بين العفيفة والعاهرة، لم أُعطِ لنفسي مبررًا واحدا علي هذا الطلب، شعرت بقوة لم أشعر بها من قبل، قررت أن أُنهي هذه العلاقة التي أخذت مني الكثير، نهاية حتمية منذ البداية.

أعلم أنك تسمعني، وتعلم بألمي، أعلم أنك تلمس حاجتي وتعرف حزني، دائما أتحدث إليك، وأبكي، دائما أتوسل إليك أن تشدني إليك بيدك الرحيمة.

ها أنا وحدي مع الألم، وحدي بدمعي، ليس لديَّ سواك، من لي سواك يا الله، لا تتركني أعيش مع الألم، لا تترك الحزن يتمكن مني ويقضي عليَّ.

أنا التي ما اعترضت يومًا علي حُكمك، أنا التي لم أسخط يومًا علي قدرك، لا أريد أن أموت حزنًا، الألم ضخم لا أتحمله، أشعر به كل يوم يتخلل عظامي.

أنا صاحبة الجسد والقلب الضعيفين، أنا لا أقدر على مواجهه الحزن وحدي، أنتظر عطفك وكرمك، أنتظر يدك تنتشلني من كل بحر الألم الذي أعيش فيه.

إن كان هناك ذنب فعلته يحول دون عطفك، فأنا أتوب عنه يا رب، ساعدني، لا أقدر أن أقف علي قدمي مرة أخرى، الخيبات تلتهم ما تبقي من جسدي النحيل.

****

بين جدران غرفتي المظلمة، الأشياء من حولي تَكاد تصرُخ من الحزن، كل شيء بغرفتي يحكي شيئًا، وسادتي وحدها تخفي أسرارا كثيرة، دمعات تغسلها كل يوم.
إنْ قرر أحد أن يزيل غشاوة قلبه وينظر بعمق داخل قلب وسادتي، سيتساءل، من هي صاحبة كل هذا؟ سيشك أني مازلت علي قيد الحياة !سيجد ذكري هُنا، وهُنا، وهُنا، وهُناك ..
هُنا كنت أبكي، وهُنا كنت أتألم، هُنا كنت أصرخ بصمت!، أنا التي سحرت القلوب بابتسامتي، حالة من البهجة والسرور كنت أبعثها لكل من يَعرفني.
لكني وحدي فقط أحمل أوجاعي وآلامي، حَكم عليَّ القدرْ أن أعيش لسنوات وحيده ، لديَّ عائلة وأقارب، لديَّ من الأصدقاء ما يكفي !!لكني أعيش وسطهم وحيدة، وهبت حياتي لهم، كنت آذانًا مُصغيةً لأوجاعهم ، أوزِّع الأحضان الدافئة لكل من حولي، كنت مثل بئر أمل لكل من يَشكو من متاعب الحياة، أداوي جراح كل من يَنزفْ.
كُلُّهم تناسوا أن أوجاعهم وجراحهم وهمومهم نقطة في بحر أحزاني، تناسوا أنَّ لي حق أن أتكلم ولو لمرة، وكأنني حق مكتسب لهم !أخفيت ضَعفي ودُموعي عنْ الجَميع، تخيلوني قوية، فَزادوا حِدةً وجعي.

أنا مُخطئة يا الله، مخطئة أنني احتجت لهم ونسيت أنك أقرب إليَّ من حبل الوريد، بقيت طوال حياتي أبحث عن أمان، وغفلت أنك كل الأمان، أنجدني ولا تُمكن الألم مني، لا تتخلى عني، أعطني القدرة كي أخرج من هذه المحنة.

جمعت كل ما يخصه في حقيبة بلاستيكية، وضعت بها كل هداياه، كل شيء صغيرا كان أم كبيرا، أحضرت كل صورنا معًا، وضعتها في الحوض، وأشعلت فيها النيران، بين نظرات وعلامات استفهام من أهلي، تعالت أصواتهم، وأنا كأنني لا أراهم ولا أسمعهم، أخرجت كل شيء يخصه علي باب شقتنا، لم يبقَ من صورنا غير الرماد، خلعت محبسه من إصبعي.
بعد أن انتهيت من كل شيء يتعلق به ، أغمضت عيني وأخذت نفسًا عميقا حبسته لدقائق بداخلي، لأخرج زفير الصبر من أنفي، استعدادا للحرب الأصعب مع "أهلي."

_أنا مش هرجع للحيوان دا تاني لو حصل إيه، ومن غير ما أقول أسباب ومن غير ما أتكلم، من النهاردة أنا معرفش حد في حياتي اسمه أحمد، وفروا أي كلام علشان ده قرار ومش هرجع فيه حتى لو موتوني.

****

إلى أمي الغالية

تحية طيبة وبعد،،،

أفتقدك جدًا، أفتقدك للحد الذي لا يُمكنك تخيله، نعم أراك طوال اليوم، أريد أن أختبئ بين ضلوعك، أدفع أنفاسي في صدرك، أحتاج أن تضميني بين ذراعيك، حضن، لا أرضى به إلا عندما أسمع صوت تكسير عظامي، أتخيل لو كنت أعي لحظة وجودي بأحشائك، أسرح بخيالي لماذا لا نشعر بهذا الوقت !أريد ذلك حقًا، أريد أن أشعر بذلك الاحتواء.

في كل لحظة أتمنى أن أعود إلى داخلك مرة أخري، كل ما أحتاجه أن أهرب من كل ما حولي وأختبئ بك، أريد أن أبقى بداخلك، أريد أن أتنفس أنفاسك، وآكل طعامك، ألتصق بكل تحركاتك ..أريد أن أشعر بحبك يا أمي.

جئتِ من الحج أمس بعد غياب عشرة أيام، رغم أن هناك مسافات بيننا طوال الوقت إلا أنني شعرت بألم الفراق، لا أنكر أن البيت بدون أم مُتعب بكل الأشكال.

كنت متحمسةً أن أراك بشغف، بقيت في المطار ساعتين أحملق في كل الوجوه، وأسألهم عن وجهك، أنظر إلي الأحضان الملتهبة بين كل مشتاق وجد حبيبه الغائب، حتى رأيتك، ركضت نحوك، دون تفكير مني، اقتربت منك وفتحت ذراعي لأحتضنك، وجدت يدك امتدت لتصافحني فقط، لم أجد إجابة حتى الآن علي رفضك احتضاني، رغم أنك احتضنتي أخي.

دائما كنت أُطلق العنان لعقلي، كيف يفهم ويفسر أفعالك هذه، أجد فكرة واحدة تسيطر على عقلي، وهي ان أبي كان متزوجًا من امرأة قبلك وأنجبني منها، ثم توفت، وقمتي أنتِ بتربيتي.

لكن الشبه الكبير بيننا يجعلني أتراجع ،أخفي هذا التفكير داخلي ولا اقدر أن أبوح به يوما لأحد، تعلمين أم لا تعلمين، لم يعد يهمني الأمر ،أصبح وجودك فاترًا، لا يتخلله أي نوع من الوصال،

أصبحت أحنُّ وأشعر بأيِّ قلب في الحياة غير قلبك، الجفاء لا ينمو أبدًا إلا في تربة جافة، وكنتِ أنتِ الأرض الجافة التي لا يدخلها ماء ولا هواء.

دامت قسوتك بخير

إبنتك

أغلقت باب غرفتي على نفسي، كرهت كل شيء حولي، أردت أن أبقى وحدي، حتى صديقاتي لم اقدر أن أحادثهم، أغلقت هاتفي، أطفأت كل أنوار غرفتي، قررت ان أهرب من كل ما حولي ..كنت أرى حينها أنَّ هروبي من الجميع هو انتصاري الوحيد، لا يوجد أفضل من وحدتي كي أجلس معها، لا أشعر بالأمان سوى معها..

رغم ما حل بي من ضياع، إلا أنني لم أجد أحدًا من أهلي يدخل إلى ويخبرني ماذا بي !يسأل هل أنا مازلت علي قيد الحياة أم لا، لكنهم ابتعدوا عني وقاطعوني بسبب قراري هذا .. سيطرت عليَّ فكرت الانتحار كثيرًا، لأول مره أفكر بهذا القرار الصعب، سئمت من هذه الحياة وكرهت الظلام في قلوب من حولي، لكني كنت أضعف من أن آخذ قرار التنفيذ.

أتذكر أيام كنت أحلم وأتمنى، أيامَ كنت بعُمر ليس ببعيد، كنت أرى الحياة بلونٍ ورديٍ، أقسى آلامي عندما ترفض أمي شراء دمية لي، كان لديَّ أحلام أتمسك بها وأثق في تحقيقها، ومع الوقت بدأ ضَوء الأمل يتلاشى، حتى صارت الأحلام ألمًا ثم آلام.

صرت أعزف على نغمات الحزن ببراعة، أصبح الحزن لي صديقًا لو غاب لحظات أشتاقه، كنت أنا القوية أمام أعينهم، والضعيفة الهشة المكسورة أمام نفسي.

كنت أنا الضاحك الباكي، احترفت التمثيل، كم تمنوا لنفسهم، ابتسامتي وقوتي وعقلي!

أيااااام مرت عليَّ، وأنا وحدي أشعر بالاختناق .. كم ناشدتُ الموت وكتبت له إشعار غزل حتى يحن عليَّ، امتلأ قلبي بالجثث، حتى عندما أحببت وتمنيت أن يصير هذا الحب هدية الزمن لي، اجتمعت كل ظروف العالم حولي واتَّفق القدر والنصيب عليَّ، فكان عليَّ الرضا.

حتى الدمعات ليس حقي" أرجعت رأسي للوراء لكي لا يسقط دمعي.. " استسلمت لحكم القدر، خضعت لكل أوامره، لا يعلمون أنني فعلا لا أستطيع تذوُّق طعم الفرح، فمرارة كل ما مر بي جعل مذاق كل شيء" علقم"، أقسمُ أنني لا أعرف كيف أفرح!!

فمن يعيش بالظلام طويلا يُغمض عينيه ويتوجع إذا خرج للنور، وأنا كلما رأيت السعادة علي مسافة قريبة مني، وذهبت للمسها، أجدها تبتعد، أقترب أكثر وتبتعد أكثر ، وإذا جاءت لي بعين الرضا، أشعر وكأن هناك شيئًا لم يكتمل، شيئًا ينقصني، شيئًا يُمرِّر مذاق الفرح، لماذا! هكذا أعيش، بين كل يوم جرح أشد قوة عن ماقبله، أختنق بصمت وأموت موتًا هادئًا، أشعر أنني كبرت دون أن أنتبه، أُقابلهم بابتسامة عريضة وداخلي بركانًا يغلي من الألم.. أنا التي تعيش ببقايا قلب، وبقايا روح .. نعم أنا التي أعيش" ببقايا أنثى."

****

في ليلة رأس السنة كنت أحتفل بمفردي بين جدران غرفتي، رغم أنني طوال حياتي أقع وأقف علي قدمي مره أخرى، ولكن هذه المرة لا أقدر علي رفع رأسي للوراء، ظهري انحنى من ثِقل الحمل، نهضت من سريري إلى شرفتي بخطوات مثقلة، أنظر إلى الأمطار خلف زجاج الشرفة، أهمس لذاتي، كوني أقوى" لعله خير."

ميري كريسمس، هابي نيو يير، كل عام وأنت بخير، عبارات واحتفالات وتهاني انتظار، وأحلام، وأمل يلوح في الأفق.

أتذكر في العام الماضي كنت معي وكنا نحتفل واليوم أنا بدونك، قلت لي أنتِ الهواء والحياة. واليوم سيمر عام ولا أنا الهواء ولا الحياة ولا حتى صفحة واحدة في تلك الحياة. كل الكون يحتفل بنفس اليوم ونفس التهنئة، لكن يختلف كل شخص بأحلامه وذكرياته .. فهناك من ينتظر عامه الجديد ليتزوجها، وهناك من تنتظر علي أمل عودته، وغيرها تنتظر العام الجديد على الشرفات، وهناك من يضع كل أحلامه وآماله في هذا العام، ويقول

"إن شاء الله سيكون عامًا أفضل وسيبتسم لي الحظ"

وبين من يبكي، ومن يحزن ومن يسعد، ومن يأمل، ومن يتذكر، فهناك شيء واحد لا يتغير هو "الانتظار"، سواء انتظار غائب أو انتظار سعادة أو انتظار أحلام تتحقق، فكلنا ننتظر في كل عام جديد.

توسلت لعامي الجديد، أخبرته بأنني في كل عام يقترب أجد به شيئًا لأحبه، وأزينه بزينة الأمل، طلبت منه أن يخضع لي ولو لمرة، فأنا اكتفيت من مرارة طعمه، مللت من قولي العام الجديد سيكون أفضل.

وناشدته بحزن، ألا يخزلني، وأن يكون رؤوفًا بي، أن يرسل لي أي شيء يجعلني أتمسك بالحياة.

همست لوحدتي أخبرها بأنها ساعات قليلة وينتهي عام وتنتهي معه كل شيء، وكل لحظة سعيدة كانت أو حزينة، وستبدأ حياتي الجديدة، سأمحو كل شيء كان حتى الذكريات لا أريد تذكرها، سأجد مخرجًا لي ولروحي، و أُلملم ما تبقى مني، سيبدأ عام جديد وسيبدأ معه عمر جديد، سوف أغلق كل دفاتري، وأفتح كل الأبواب المغلقة، لم ولن أعود للماضي ولن أنظر خلفي، سأمحو كل شيء من ذاكرتي وأطيب كل جروحي وأستقبل عامي الجديد بكل أمل، وسيبقى عامي السابق جزءًا مفقودًا من ذاكرتي لن أتذكر منه شيئًا.

قررت أن أبدأ عامي الجديد بركعتين ودعوت ربى ..

"ربى لم أجد لي شيئًا يسعدني في ذلك العام فأسألك ربى أن ترضيني وتجبر كسري وتخلفني فيما مضى خيرًا منه هذا العام، وكل من ظلمني فإنك تعلم وترى، رُد لي حقي فليس لديَّ سواك يا ربَّ العالمين."

****

_حناااااان !! بجد مش مصدقة، ايه يا بنتي أخيرا فتحتي تليفونك وافتكرتينا؟

_ازيك يا نورهان ، وحشتوني اوي.

_واحشناكي ايه بس؟ أنتِ هتمثلي !ده أنتِ ولا حتى بتفكري تردي علينا!

_معلش، أكيد أنتِ عارفه حالتي كانت ازاي.

_عارفه، المهم أنتِ كويسه دلوقتي!

_الحمد لله، أحسن.

_طيب هابي نيو بير يا ستي.

_وأنتِ كمان كل سنة وأنتِ طيبة، انتو فين كدا؟

_احنا في الجامعة ومعايا العيال أهم.

_طيب أنا هلبس وأجيلكم.

_ايوه كدا يا شيخة، قشطة مستنينيك.

_اوك سلام.

_سلاموز.

تعمدت أن أُظهر لكل من حولي أنني قوية، ولم تؤثر بي تقلبات الدنيا، رسمت ابتسامتي المعتادة التي دائما تخفي مرارة ما أشعر به، كم من ابتسامة تداري وجعًا، وكم من ضحكاتٍ كان آخرُ رنينها أنينًا!

واصلت عامي الدراسي الثالث، أقابل صديقاتي يوميًا ونفترق بموعد المحاضرات كعادتنا، تابعت حياتي برتمها البطيء، ورغم أنني اعْتدتُّ على وحدتي، إلا أنني تمردت عليها، وأعلنت العصيان.

وجدت نفسي فجأة لا أطيقها، نقضت العهد الذي كان بيننا، كل ما أردته حينها ألا أُتيح للوقت أن يجمعني بوحدتي، أردت ألا أُعطى لعقلي الفرصة للتفكير في أي شيء.

اقتحمت عالم الانترنت، أنشأت حسابات علي كل مواقع التواصل الاجتماعي، كان هروبًا من الواقع المرير الذي أعيش فيه، رغم من شعور البغض لكل ما حولي من أشخاص، إلا أنني كنت أستمتع بالتعارف علي أشخاص جديدة عبر شاشات إلكترونية، لا يعرف كلا منا حتى ملامح الآخر، كنت أتعمد الكذب على كل شخص أتحدث إليه، أختلق القصص والروايات التي تمنيت أن أعيش بها، أختار اسم غير اسمي، وأهل غير أهلي، حتى أنني أحيانًا كنت أسرق صور فتيات حقيقيات وانسبهن إليَّ.

أصبحتْ حياتي مجرد نافذة" ماسينجرية"، أعود من جامعتي لأجلس أمام شاشة صغيرة، وأيضًا أثناء وجودي بالجامعة أظل طوال الوقت ممسكة بهاتفي، أستكمل رحلتي في هذا العالم، انعزلت عن العالم بمحض إرادتي، وبنيت قصورًا متينة تملؤها العلاقات المختلفة التي لا تؤدي يومًا للملل، كل يوم ألتقي بأشخاصٍ من كل البلدان وكل الألوان، بينهم الرومانسي، الذي يريد أن يبني قصة حب خرافية، تبدأ وتنتهي من لوحة مفاتيح الحاسوب، ومنهم أيضًا مدمن العلاقات

الإلكترونية، الذي يمتلئ الإيميل الخاص به بعشرات المعجبات، وأكثر من قابلت هم الذين تسيرهم شهواتهم، وحبهم للجنس الإلكتروني.
رغم أني وقعت برغبتي في عالم كله أقنعة مُزيفة، وكنت وقتها الفتاة الساذجة التي أقحمت روحها وسط حفرة مليئة بالثعالب، إلا أنني وجدت خيار" الحظر أو القائمة السوداء "هو أنسب طريقة للاستمرار في هذا العالم.

لا أعلم ماذا حدث لي جعلني أتحول هكذا؟ قلبي أصبح أسود وصبري نفد.
وَيُحكى يومًا، أَننا كنا بخيرٍ!! لا لا ، فلن أتذكر مُنذ متى كُنا بخير!!

لا أعلم أين ذهبت براءة الأطفال من عيني؟ أرى نظرة بعيني لم أجدها من قبل، جرأة، حزن، شر !!حتى ملامح وجهي تغيرت، أشعر وكأني في سن الخمسين، كلما نظرت في المرآة أجد وجهًا لا أعرفه من قبل، بملامح باهتة، ونظرة مشوشة.
ضحكة مزيفة مع صديقاتي، وعبوس بجوف الليل، اختلطتْ بداخلي الحقائق و مبادئي بدأت تتلاشى، أصبحت أكثر جفاءً، لا أفتقد أحدًا أو لا أبحث عن أحدٍ، لا أُطيق أيَّ كلام من أحد ولا أضع أعذار لأي موقف.
أكذب أحيانا، لا، أنا أكذبُ كثيرًا، أتجمَّل، أتلوَّن.
تمردتُ على الكل من حولي، قبلتُ أفكارًا كنت رافضةً لها، حتى الروحانيات أصبحت لا أُجيد خشوعها !ذهبتْ كلُّ المعاني الجميلة بداخلي، أصبحت أرى كل الوجوه إمامي تتلوَّن كشياطين، وثعالب، وأُسود، يطمعون في النيل مني..

ضاعفت مخدر العقل، لا أريد أن أتذكر شيئًا مضى، أو أتمنى شيئًا قادمًا، كنت امتلك أحلام لا تُحصي وآمالا لا حدود لها، لكني لم أستطع حقًا تذكُر أحلامي وطموحاتي.
كل يوم يمر أقول لنفسي سأتغير غدًا، ويأتي الغد وأتغير فعلا، لكن للأسوأ !

ووسط كل هذا الصخب الذي يملأ رأسي، أجد سؤالًا يراودني بين الحين والأخر، ما الذي جعلني هكذا؟ لماذا توحدتْ كل ظروف العالم ضدي، واجتمعت كل القلوب السوداء حولي؟

أحاور الزمن كل ساعة، أسأله لماذا نزع من قلبي كل المعاني الجميلة، ولا يترك لي طريقًا للاختيار !أترجَّاه أن يُعيد لي نفسي التي أعرفها، يُعيد لي براءتي وضحكاتي وآمالي وأحلامي، يعيد لي ذكرياتي وسنواتي التي ضاعت، وقلبي الناعم الذي أهلكتْهُ الجروح، أنادي كلَّ ليلة ويا ليت الذي يذهب يعود!

****

"عبدالله "ذلك القلب الذي يمكنه أن يسع العالم كله، عندما قررت أن أكتب عنه شيئًا، عجز القلم عن وصفه، وعجز العقل عن اختيار أفضل الكلمات.

"عبودي .. "كنسيم الصباح هو، قطرات المطر بوقت الذروة ، قد تخجل الكلمات من رسمه، تتوه حروف العشق أمام اسمه وقلبه ، حفرت اسمه بحروف من ذهب داخل قلبي، هو الشخص الوحيد الذي يختبئ بالأعماق، لا أبوح بسره لأحد حتى الموت.

"عبدالله "تلك الروح التي وهبتني الحياة التي كنت أتخيل أنني أعيشها، حياة حقيقية، وأنا في الحقيقة لم أعش يومًا، مشاعر حمَلتْ قلبي لمكان لا يخطر على بالي يومًا أن أحلم به، كل هؤلاء الأشخاص التي ظننت أنهم بعثوا لي قدرًا من السعادة، كانوا مجرد سراب، أو خرافات .

"عبدالله "ابتسامته فقط كانت كفيلة أن أرى السعادة تنهال عليَّ كالشهاب، مَن مثل هذا القلب؟ أين كان يختفي؟ لماذا ابتعد عني كل هذا الوقت؟

عين" عبدالله "بها نظرة تحوي أمان العالم كله، أرى بها حُبًا وحنانًا يرقُّ لهما الحجر، رجلٌ مثله لا يمكن أن يصبحَ ماضيًا أبدًا.

****

رغم أن حالتي دائمًا هي" أونلاين "علي مواقع الدردشة، إلا أنني لا أتحدث مع أحد، أنظر على رسائلهم فقط ولا أجيب، وكأنني فقط كل ما أريده أن أشعر أنهم مازالوا يرغبونني، جاء صوت رنة رسالة جديدة، لكني لا أبالي بداية" عبدالله "كانت مثيرة حقًا، كنت وقتها مُمددة علي سريري أضع سماعات الهاتف وأستمع للأغاني .

رنت صوت الرسائل مرة أخرى، أمسكت هاتفي لأعرف من المُرسل :

_اسمي عبدالله وبيدلعوني بعبودي، وبكره الاسمين.

_مش بتردي، شوفتي بأه إني عندي حق أكرههم.

لا أعلم ما الذي جعلني أقوم بالرد عليه، وجدت به شيئًا يجمعنا، لأنني أيضًا أكره اسمي..

_أنا كمان بكره اسمي، بس أنت اسمك حلو.

_طيب قولي لي اسمك ايه وأنا أقولك حلو ولا وحش.

_اسمي حنان .

_لا اتصدقي فعلا أنا كمان مابحبوش .

_هههههه الله يسامحك .

_الله مش أنتِ قولتي إنك مش بتحبيه، زعلتي ليه دلوقتي !

_لا مازعلتش، أنا بهزر بس .

_طيب الناس بتدلعك بتقولك ايه؟

_مممممم يعني حنة، نون، نونو .

_هههههه حتى أسامي الدلع مش نافعة بردو .

_هههههه والله صح على رأيك .

_طيب أنا عندي اقتراح عشان نحل الأزمة دي .

_ياريت، قول .

_أنتِ تفكري في اسم ليّا، وأنا أفكر في اسم ليكي .

_مممممم موافقة.

برغم أنه أول يوم علي حديثنا معًا، إلا أننا اقتربنا لشهور قادمة، لم أشعر بالوقت أثناء حديثه معي، سوى علي صوت أذان الفجر.

_اية داه !دا الفجر !

-ايوا .

_أنتَ عارف احنا بنتكلم من امتي؟

_من الساعة.10

_يلا لو سمحت قوم صلي الفجر .

_أنا مابصليش للأسف .

-ليه يعني !

_مش عارف، بس نفسي حد يفضل ورايا عشان أصلي .

_خلاص أنا كل شوية هقولك صلي بس يارب ماتزهقش .

_لا مش هزهق والله .

_خلاص لما أشوف، يلا تصبح ع خير .

_استني استني هو ايه اللي تصبح علي خير كدا ع طول، ولا كأننا 7 ساعات بنتكلم سوا، ابعتي رقمك يلا .

_لا مش هينفع .

_اخلصي يلا، مش أنتِ عايزاني أصلي .

به شيء جذبني إليه، جعلني أتحدث معه بكل صدق، لم استخدم أي شيء مستعار معه، وجدت نفسي أريد أن أسمع صوته، أن أراه، وأقترب أكثر، أشعر أنه يحمل إليَّ شيئًا، لا أعرفه، رغم تعدد علاقاتي الإلكترونية ولم يسبق لي إرسال رقم هاتفي لأحدهم، لم أفكر مرتين قبل ان اوافق علي اعطاءه رقم هاتفي.

انتفضت على صوت رنة هاتفي العالية وسط هدوء الليل الميِّت، قبل أن أبدأ الصلاة، شعرت أنه المتصل، عندما سمعت صوته، تسارعتْ دقات قلبي، كنت أخشى البدايات جدًا، لكني قررت ألا أقع في الحب مرة جديدة.

****

_ماكنش ينفع مادهوش رقمي.

_ليه يعني ياختي إن شاء الله.

_معرفش حسيت كدا إنه ماينفعش أقوله لا.

_بس مافيش واحدة بتتعرف على واحد من النت وتديله رقمها من أول مره كدا.

_هي يعني فرقت أول من تاني مرة من عاشر مرة، المبدأ واحد.

_هيقول عليكِ بت صايعة.

_ياستي يقول اللي يقوله، هو أنا هتجوزه.

في اليوم التالي أثناء حديثي مع هالة عنه، اتصل بي، أجبته أمام هالة وأنا أنظر إليها، بوجه مبتسم.

_آلو.

_أنتِ فين يا بنتي؟ أنا عند الكلية بتاعتك ومش شايفك.

_ إيه !!!! أنتَ بتهزر

_بتكلم جدّ والله، أنا واقف عند مدرج2 ، لابس تي شيرت أبيض، مش شايفاني.

مجنون، أو مُختل عقليًا، أحببتُ هذه العقلية جدًا جدًا، كنت بحاجة ماسة إلى هذا العقل، أريد رجلًا غير تقليدي، رجلًا غير عادي، رجلًا يمحو" حنان "السابقة، ويعيد بناءها من جديد، حتى عندما قرر أن يختار اسمًا لي، اختاره بعيدًا عن عقول من حولي، قرر أنْ يكون مختلفًا عنهم في اختياري لاسمي، بعد أسبوعٍ من تعارفنا، أخبرني أنه أخيرًا وبعد تفكير طويل وجد اسمًا لي.

_مستكة.

_هههههههههههه يانهار اسود، بقالك سنتين بتدور على اسم وفي الآخر عايز تسميني "مستكة"

_ايوه علشان أنتِ عاملة زي المستكة بالظبط.

_هههههه ليه يعني، خير!

_علشان ريحتها وطعمها حلو، رغم أنها مُرة لكن الناس بتحبها.

_مُرة ! ماشي يا عم شكرا.

_يعني أنتِ سيبتي ريحتها وطعمها الحلو ومسكتي في كلمة مُرة.

_ ايوه، وأنا مرة في إيه يعني.

_مُرة عشان محدش يتمسك بيكِ إلا اللي بيحبك بجد.

عبدالله، أو" عبودي "بعد اختياري له هذا الاسم، يكبرني بثلاث أعوام، مهندس، بشرته سمراء، ذات المعالم المصرية الجميلة، جسمه المتناسق، يملك طابع حسن في ذقنه، عيناه سوداوان.

رغم حرصي علي عدم الاقتراب من أحد، لكني معه لا أقدر أن أقاوم اكتشافاتي، ودائمًا يدفع قلبي الثمن، لا أحب أن أحكي كثيرًا عن حياتي، أترك له الحديث، أحببت حديثه وصوته، وطريقة سرده لأي موضوع.

تربطه علاقة عاطفية بفتاة من محافظة بورسعيد، منذ عامين، أخبرني أنه تعرف عليها عن طريق الصدفة خلال تواجده ببورسعيد مع أصدقائه، نشأت علاقة حب بينهما بعد فترة قليلة، وتطورت علاقتهم، حتى تحدث إلى والدتها، واتفق معها أنه سيتقدم لخطبتها بعد إنهاء جامعته. قبل معرفته بي، كانت علاقتهما بدأت تتوتر.

_رغم إني بحبها وهي بتحبني جدًا، عمرها ما فهمتني.

_طيب إيه سبب المشاكل، زي ايه مثلا.

_هي حاسة إني مش بحبها، وإني مقضيها هنا، وبلعب بيها.

_وايه اللي خلاها تفكر كدا.

_علشان هي عايزاني ع طول أروحلها بورسعيد وأنا فعلا مابكونش فاضي، أو فكرة السفر بالنسبالي مش بحبها.

دائما كان يحدثني عنها، أحببت الابتسامة التي ترافقه كلما ذكرها، تمنيت أن أكون حبيبته، تمنيت هكذا رجلا، لا ينكر حبه لي، رجل كلما نطق حروف اسمي لا يخجل من وصفي.
حاولت أن أكون صادقة من نفسي عندما أقنعه بأن يسافر لها ويصالحها، لكني كنت دائمًا أغار عليه، رغم يقيني بأن علاقتنا لا تتخطى حدود الصداقة.
اقتربنا من بعضنا أكثر، كانت علاقة عكسية، كلما اقترب مني، ابتعد عنها أكثر، أصبحنا نلتقي يوميًا بالجامعة، ونتحدث في الهاتف طوال الليل.
للحظات كنت أشعر بالذنب تجاهها، لكني سرعان ما أعطي مسكنات لضميري كي يهدأ، ويتركني استمتع بهذه الحالة.

"عبدالله "الذي جعلني لأول مرة في حياتي أشعر بأنوثتي كاملة، أنثى لا ينقصها أي شيء، رجل احترمني بمعني الكلمة، صوته الدافئ، الذي لا يعلو أبدًا، أو حتى يتلفظ بأي لفظ خارج، نظاراته التي تحمل أصدق مشاعر الحب، نظرات خالية من أية نية جنسية.

رجل بارع في أن يجعل حبيبته ملكة متوجة، يختار دائما أجمل عبارات الحب والثناء، دائما عبدالله يهتم بأصغر التفاصيل، أتفاجئ أن لون طلاء أظافري أعجبه جدا، أو رائحة عطري الجديد، أو" الكوليه "الذي يلتف حول عنقي.
دائما لا يجعل أي شيء يمر دون تعليق جميل، طوال الوقت يخبرني أنني جميلة جدا، لا احتاج في مره أن اسأله عن رأيه في أي شيء أرتديه أو أضعه.
"حلو أوي الطقم ده عليك، تسريحة شعرك النهاردة رقيقة جدًا، جميل أوي الخاتم اللي أنتِ لابساه، لون مانيكيرك ده تحفة."

ما هذا الكائن !! لا أعتقد أنني من الممكن أن أجد أحدًا مثله بحياتي، أحببت كل شيء معه، أحببت أنوثتي التي تعمدت إبرازها كل يوم، أصبحت أنثى متجددة كل يوم، ابتسامتي لا تغيب أبدًا.

ذات يوم كنا نتناول وجبة غذاء في إحد المطاعم، كلمته عن حياتي، وعن علاقاتي وتجاربي البائسة، رغم أنني سبق وأن قررت ألا أخبر أي رجل بعلاقاتي السابقة، كنت على يقين تام أنه سيتفهم، ولن يظن ظنا سيئا.

_قفلت ع نفسي وقررت إني مش هقرب من حد أبدًا، لحد لما جالي إحساس إني مش عايشة.
_ لما حاجة في جسم الإنسان بتتبتر، تفتكري بيموت.

_لأ طبعا.

_بالظبط، ومش بس بيعيش، دا كمان بيتكيف مع جسمه الجديد، وبيحاول يلاقي بديل عشان يعيش بطريقة طبيعية، ومايحسش بالنقص، الحياة مابتقفش علي حاجه أبدا، هتلاقي كل حاجة ماشية والناس طبيعية والشمس بتطلع والليل بيجي، والطيور بتسافر، وأنتِ بس اللي واقفة بتبكي ع الاطلال، انسي واقطعي أنتِ بنفسك أي جزء تعبك، ودوري على بديل غيره.

دائما كان يقول كل شيء بشكل مختلف، يعبر عن كل شيء بشكل غير اعتيادي.

كل مرة نلتقي، يحضر لي شنطة بها حلوى، الشوكولاتة، والعلكة، المصاصات، والجيلي كولا، أشعر وقتها، بأنني طفلته المدللة، كل يومين أجده يفاجئني بهدية غير عادية، أجده يحضر معه باقة من الزهور.

مجنون جعلني أعلن عصيانًا على كل ثوابتي، وأركل عقلي بقدمي، شعرت أنني أتحرر من قيود مجتمع أرغمني على الحياة كما يريد، سنوات وأنا التزم بكافة القوانين إلا أنني في نظر كل ما حولي فتاة سيئة.

اتصل بي في الثامنة صباحًا عدة مرات، وطلب مني أن ارتدي ملابسي وأقابله عند الجامعة، ورفض أن يقول السبب حتى نلتقي، أخبرت أمي أنني لدي محاضرة مهمة، وركبت أول مترو متجه إلى الجامعة، وجدته ينتظرني بسيارته.

_ايه يا عبودي، قلقتني، في إيه.

_مافيش، أنا قررت أخطفك بس.

_ هههههه ماشي اخطفني.

وجدته يشغل محركات السيارة ويبتسم.

_أنتَ رايح فين بجد.

_هنروح العين السخنة.

_نعم ! عبودي بطل جنان.

_ وماله الجنان، الجنان ده أحلي حاجة يا مستكة قلبي.

_عبدالله بس جنان لو سمحت رجعنا الجامعة.

لم يستمع لكل صراخي الزائف، وعدني أنني سأعود في ميعاد انتهاء محاضراتي في الجامعة، كان يوم لن يمكن لتمحوه سنوات، "عبدالله " جعلني أستنشق هواءً جديدًا، تركت كل ما مضى خلفي، واستمتعت بكل دقيقة تمر، لأول مرة أعيش كأنثى، أحيا كآدمية، ضحكت من أعماق قلبي، ضحكات أسمع رنينها باعماقي قبل أن يُخرجها فمي، الأمان الذي لم أستشعره طوال حياتي شعرت به عندما وضع يده علي كتفي، لم أنتفض من الخوف لحظة، لا لا يمكن أن يكون إحساسي هذه المرة خطأ، هذه المرة أثق أن إحساسي لا يخونني، لا يعقل أن أكون بعد كل هذه التجارب ومازلت أخطئ في حكمي على الأشخاص.

عيناه اللتان تنظران إليَّ نظرات بها حنان العالم، دائما كان يريد أن يجعلني سعيدة، طوال الوقت يخبرني " أنا نفسي أعوضك اللي فاتك، نفسي أخليكي مبسوطة بأي شكل ."

أغلقت هاتفي، ولم أسأل على الوقت، كنت أثق به جدًا، وأعرف أنه سيلتزم بكلمته معي، وسنعود القاهرة في الميعاد.

أحببته لدرجة تفوق الوصف، ورغم أنني لم أجد مسمىً لعلاقتنا، لسنا أصدقاء، ولا أحبابًا، أحببته لكني لم أخش يومًا من الفراق وألمه، لم أكن أريده حبيبًا، فالأحبة دائما يرحلون، لم يقل لي" أحبك "وأنا أيضًا لم أنطقها، كنا كعاشقين، نظرات الحب يملؤها الكلام، الاهتمام يكفي، الحنان يكفي، الاحترام يكفي، سئمت من كلمات الحب والغزل المعسول، سئمت من كثرة كلمات الحب التي نسجتها ألسنة البشر.

عند علمه بهوايتي" الرسم"، طلب مني أن أتمسك بها، وان أعود لها من جديد، حمسني كثيرًا، طلب مني أن أرسمه، أحضر لي كتبًا وفيديوهات عن الرسم حتى أتعلم أكثر، اشترى لي كل الأدوات الخاصة بالرسم، وعدته أنَّ أول لوحة لي ستكون صورته.

ثمانية أشهر مرت على فراقي أنا و" أحمد"، ثمانية أشهر وأبي يقاطعني، حتى أنه لا يرد السلام عليَّ، لأول مرة" أكسِّر "كلمته، كيف تجرُؤ هذه البنت أن تختار شيئًا واحدًا بحياتها ! تعجب كثيرًا عندما أخبرته أنه من حقي أن أختار شريك حياتي،" زمان البنات كانت بتتجوز اللي أهلها يقولولها عليه، ده حتى كان أوقات بتشوفه يوم الفرح بس."

خاصمني كل هذا الوقت؛ لأنني تمردت عليه، تمردت على شخص أهانني أكثر من مرة، شخص تطاول عليَّ لفظيًا وجسديًا، كان من المفترض أن أقبل كل هذا حتى لا يقال إنني متمردة أو عاصية، لا أتعجب من الأمر، فأب مثله ظلم ابنته لسنوات، بالتأكيد لا يُبالي أن يظلمها سنوات قادمة، أحب كثيرًا أن أشاهد لقطات الحب بين أب وابنته في الأفلام والمسلسلات، أسرح بخيالي، هل هذا حقيقي؟ !هل هذا يحدث فعلا أم أنها مشاهد تمثيلية فقط ! لم أبالِ بمقاطعته لي؛ لأن هذه هي علاقتنا، علاقتنا البور التي لا ترويها كل أنهار العالم، كانت تمضي أيامٌ دون أن نلتقي حتى صُدفة داخل جدران المنزل، نجلس معًا على منضدة الطعام، يوم واحد بنهاية الأسبوع، ولا أحد ينطق بكلمة.

علاقتنا التي تدهور بُنيانها، لضعف أساسها، أساس هش، بمكونات منتهية الصلاحية، كلما مر عام، أشعر أنني أبتعد عنه، أفقد الشعور بوجوده بحياتي، أفقد الرغبة باحتضانه، أجد كل ذكرى سيئة له تترسَّخ معالمها أكثر داخلي، مخزون الذكريات المقيتة يمتلئ.

لا أحمل لك يا أبي أي مادة جيدة للتذكر، لا أعلم كيف أصبح قلبي قاسيًا بهذا الشكل، لكنني حقا لا أقدر على النسيان، وأنت أيضًا لم تساعدني على النسيان.

تعودتُ على كوني وحيدة في كل شيء، لم تكن يومًا السند والظهر، هذا الصرح الكبير المتين الذي تختبئ خلفه فتاة ضعيفة هشة في مجتمع مليء بمصاصي الدماء، لم تنتبه يومًا لي، أحتاج ليدكَ تلتفتُ حولي، لتشعرني بالدفء.

لا أجيد معك الحديث، إن تصادفَ وتحدثنا قليلا بأي شيء، لا أعرف كيف أرتب كلماتي، تتبعثر مفردات الجمل في عقلي، وكأنني أتحدث مع شخص غريب عني لا أعرفه.

أكتشف كل يوم أننا تربطنا أقوى علاقة خلقها الله، إلا أنه تفصلنا أميال، كل الطرق بها لا تؤدي إليها، ولا أظن أننا سنلتقي أبدًا.

****

عشقت" عبدالله "لدرجة إنني لم ألتحم برجل بهذه الدرجة، اقتربتْ علاقتنا من تسعة أشهر، مضحك هذا الأمر، كان" عبدالله "بمثابة ابني الذي أحبه وأعشقه وحملته داخلي تسعة أشهر في سعادة، ومع ذلك لا أراه ولا ألمسه، علاقتنا تفوق مراحل الارتباط العاطفي، لم أفكر لحظة بزواجنا، كل ما أردته أن يبقى معي فقط، وان أحتفظ به وقتًا اطول.

كل شيء جميل فعله معي حفرته داخلي لا يمكني نسيانه، كل شيء جميل بحياتي كان من صنع يده، له كل الفضل في كلِّ تغيير بحياتي، وهبني دفعة من الثقة والاتزان التي تكفي لسنوات قادمة، أعطاني حبًا وعطفًا لم أطمح بأكثر من هذا بحياتي، بأنني شخص مسئول حر، ساعدني بكل شيء، حتى في دراستي، كان يأخذ كتب مواد الجامعة ويقوم بتلخيصها لتسهيل المذاكرة عليَّ، وأحيانا كان يذاكر هو موادي الدراسية ليقوم بشرحها لي.

لم أخشَ يوما أي شيء، ولم أتعثر في أيِّ مشكلة، كان لديه قدرة علي حل كل مشكلاتي، لدرجة أن صديقاتي أطلقوا عليه لقب" الخبير الروسي"، يعرف أين موضع الخلل ويعالجه، ظل جانبي حتى اتقنت الرسم، كان دائما يبحث عن كورسات وندوات خاصة بالرسم لأدخلها، كتب لي جملة على ورقة كبيرة، وطلب مني أن أُعلقها على الحائط في غرفتي،"الفشل مذاقه مُر،لكنه ليس بـ" بخيبه " فـ نادرًا من يستوعب فوائده، والعاقل منا يخلق من ورائه نجاح"،

لهفته النابعة من قلبه عليَّ عندما أمرض، نظرته المشتاقة التي أراها عندما أغيب، لمسته الحنون، حزنه على قلبي عندما أتشاجر مع أحد من أهلي.

أرسل إليَّ أغنية على الإنترنت، وطلب مني أن أسمعها، كانت فناني المفضل" منير"،

" ابكي لو في عيني دموع، اضحكي لما أكون فرحان .

احضنيني لو الغرام ممنوع .. حسّي بيَّا وبعيني، كوني شوق وحنان"

أحببته بكل شيء في، أحببته من أطراف قدمي حتى شعر رأسي، أعيش فترة بحياتي لم أتمنَ يومًا أن يمنحني القدر نصفها، كيف يمكن أن يكون هناك شخص قادر علي إسعادي بهذه الطريقة وإلى هذا الحد، أخاف عليه، أخشى أن أستيقظ يومًا ولا أجده، ورغم مخاوفي لم أطلب منه يومًا أن يظل معي، أو حتى نتزوج، لم أحسب للفراق لحظة، حب بلا هوية ولا هدف، مثل حب جبران خليل جبران لمي زيادة، أو مثل ما غنت فيروز" أهواك بلا أمل"، فقط كل ما أريده أن تمنحني الأيام فرصة أكبر كي أعوض ما فاتني.

****

كنت بامتحانات آخر العام الدراسي لعامي الأخير بالجامعة، لم يتخلَ عني" عبدالله "كعادته في الدراسة، يحضر لي الملخصات التي يُعدها بنفسه، ويشرح لي ما أتعثر به، رغم أنه لم يتركني في هذا التوقيت، إلا أنني كنت أشعر بشيء داخله، قلبي قلق من شيء ما، سألته وأجاب بالنفي، لكنه ليس كعادته، دائما شارد و قليل الكلام، حتى أنه لا يطيل النظر بعينيَّ.

اتفق معي أن أخبر أهلي بأن صديقاتي يردن أن نحتفل معًا بآخر يوم في الجامعة، أخبرني أنه سيحضر لي مفاجأة، كنت أنتظر هذا اليوم علي أحر من الجمر، في صباح يوم امتحاني الأخير، استيقظت على اتصاله،

_صباح الخير .

_ صباح الخير يا عبودي .

_ يلا الساعة 6 دلوقتي، فوقي كدا وراجعي على الصفحة اللي انا

كتبتها لك _ .أوامر معاليك .

_ يلا سلام دلوقتي..حنان .

_ نعم، .

_ كنت عايز أقولك اني

مش هعرف أجيلك بعد الامتحان النهارده.

نهضت من سريري مسرعة، ولاحقته بالسؤال:

_دا ليه بأه إن شاء الله ؟ !

_ جالي سفر فجأة، وماينفعش أأجله، ماتزعليش هعوضهالك بعدين .

_ عبدالله أنت بتتكلم جد ولا بتهزر؟ !

_ بتكلم جد، ركزي أنتِ بس في الامتحان وأنا هظبط يوم تاني.

لم أتجادل معه كثيرًا وقلت لا بأس، كل ما قاله لي مجرد خدعة، ضمن المفاجأة التي يعدها لي .

أنهيت امتحاني، وخرجت أبحث عنه أمام المدرج، ولم أجده، أخرجت هاتفي من حقيبتي لأتصل به، اتصلت أكثر من ثلاث مرات ولم يجب، أرسلت له رسالة نصية:

"عبدالله في ايه؟ لو سمحت طمني عليك، أنا خلصت امتحان ومش عارفه أروح ولا أستناك؟

رد سريعًا برسالة:

"أنا كويس بس مش عارف أتكلم، روحي البيت وابعتي لي رسالة قوليلي عملتي إيه في الامتحان، لحد أما أروح وأكلمك.

كنت أعلم أن هناك شيئًا ما، قلبي يشعر بما يخفيه عني، لم أهدأ حتى بعد عودتي للبيت، جلست علي سريري، انظر إلى هاتفي، ساعة، ساعتين، ثلاثة، أربعة، حتى رن هاتفي بالرنة المخصصة لعبدالله، أخذت نفسًا وأنا أهمس" خير يا رب"،

_ايه يا عبدالله قلقتني عليك أوي .

_ أنا كويس، قولي لي بس الامتحان جه فيه الأسئلة اللي قولت لك عليها؟

_ عبدالله، في إيه؟

_ مافيش يا بنتي حاجة، قولي لي بس الأول عملتي إيه؟ _ عبدالله أنا مش هتكلم في حاجه غير لما تقولي في إيه بالظبط؟ أنا عارفه إنه في حاجة مخبيها عني، لو سمحت قولي.

أخذ نفس عميق، كنت أسمع صوت دقات قلبه، انتظرت في ترقب مخيف، ثم أجاب بهدوئه المعتاد:

_ندى كلمتني من يومين، وقالت لي كلام كتير، وطلبت مني إني أقابلها، مقدرتش ماروحش، سافرت عندها النهارده.

أغمضت عينيَّ قليلا، استرجعت كل لحظة بعلاقتي به، كل يوم في هذا العام مرَّ أمامي، "ندى !"كيف ولما عادت؟ ما الذي جعلها تُفتش عن" عبدالله "بعد كل هذه المدة !

_حنان، أنتِ ساكتة ليه؟

_ لا بسمعك بس، وبعدين عملتو إيه؟ !

_ كانت منهارة، وقالت لي إن طول الوقت ده وهي بترفض أي عريس يتقدم لها، وإنها مش عارفه تنساني، وحياتها واقفة، وإنها بتحبني، ومحتجالي .

قطعت حديثه، وكأنني أريد أن اسمع نهاية هذه المقدمة، التي دائما ما تكون نهاية مأساوية،

_وأنت ناوي تعمل إيه ؟ !

_ مش عارف يا حنان، بجد مش عارف، أنا كنت فاكر طول الفترة دي إني نسيتها، بس لما شوفتها النهارده حسيت إني، إني ....

– إنك لسه بتحبها !

–مش بالظبط، بس أحاسيس غريبة كدا حسّيت بيها لما شوفتها، وبعدين صعبت عليَّا جدا.

و" أنا " ترددت كثيرًا في أنْ أساله، و" أنا يا عبدالله"، أنا ماذا أفعل، لم تفكر بي !، تراجعت لأنه سؤال غبي، أنا من أكون بالنسبة له، لا أنا حبيبة، ولا صديقة ولا رفيقة ولا أي شيء ، بأي حق أسأل عن حقي إن عاد إليها !لا يوجد أي عهد بيننا، كانت علاقة ممكن أن تكون أي شيء غير أن تكون علاقة تؤدي إلى الزواج، بأي حق ألومه، وأنا لم أجرؤ يوما أن أسأله عن طبيعة علاقتنا .

نسيتُها، توهمت أنها خرجت من حياتنا، لكني أنا التي وقفت بينهما ودمرت علاقتهما أكثر، ساعدته أن يبتعد عنها، منحته كل ما فقده معها حتى يرتبط بي أكثر، كنت أنانية، لم أفكر لحظة واحدة سوى أن أسرق لحظات من الفرح لقلبي، لا يمكن أن ألومها علي عودتها، ويجب على أن ألوم روحي علي ما فعلته بها، في داخلها ألم أعرفه، ويجب عليَّ الآن دفع ثمن اقتحامي حياتهم!

الجاني بهذه القصة، هو أنا، لا يمكني أن أحمل" عبدالله "أي ألم حل بي، ولا أقدر أن أصفه بأي شيء سيء ، لم أر منه إلا الخير، منحني كل ما فقدت، ولم يستغل ضعفي أو خوفي، علاقتنا كانت بمثابة اتفاق، كلا منا يمنح الآخر ما ينقصه ، أنا منحته كل ما فقده معها، وأعطيته كل وقتي واهتمامي، وهو منحني كل الحنان والرعاية التي احتاجتهما سنوات، وقف بجانبي، وأعطاني الثقة والقوة والدعم، ساعدني أن أنسى الماضي بكل ما به، لا يجب بعد كل هذا أنْ أكون أنانية، ولا يجب على أن أعيش دور الضحية،" عبدالله "لم يؤذني يومًا، أحبني بصدق، ولم تكن مشاعره تجاهي كاذبة أبدًا، كل خوف واهتمام وعطف كانت نابعة من قلبه ، ليس ضروريًا أن تكون حبًا، لكنها كانت مشاعر أرقى وأنقى من الحب ذاته.

يجب أن أتركه لحبه الحقيقي، لا يجوز أن أفسد عليه سعادته بعد الفرحة التي منحها لي، كنت لاصقة جروح ليس أكثر، وأعطاني هو أكثر من حقي.

قلَّت مكالماتنا، كنت أتصل به بمنتصف الليل أجده على خاصية الانتظار، أعرف أنه يتحدث معها، أُغلق الهاتف واتركه، بقلب بارد تعوَّد على الفراق، لا أمانع أبدا في عودته لها، لكني كل أمل ألا يتركني وحدي بعد كل هذا، كيف أمضي وحدي بعده !كنت طفلته التي تركض نحوه بكل صغيرة وكبيرة، كنت أشعر وقتها بشعور الابنة التي فقدت والدها، لا أريد أن أعيش وحدي مجددا، لا أريد.

_إنا وندى خلاص هنتجوز يا مستكة

_ بجد !مبروك يا عبد الله، ألف مبروك

_ الله يبارك فيكِ، عقبالك كدا مع واحد يحبك ويستاهلك

_ هههههه ربنا يدينا ويديك طوله العمر

_ لا ماتقوليش كدا، بكره هتقابلي إنسان يعرف قيمتك، أنتِ عارفة إن كلامي دايما بيطلع صح.

_يا سيدي ماتشغلش بالك، افرح أنتَ بس كدا، بس ياترى هتعزم ولا لا؟

_ ايوا طبعا أنتِ هبلة ولا ايه؟ أنتِ أول حد أعزمه أصلا.

حديثنا الأخير كان كنهاية أي فيلم سينمائي، وعلاقتي مع" عبدالله "تلفظ أنفاسها الأخيرة، كنت وقتها أريد أن أطلب منه ألا يبتعد عني، أن يرسل لي ولو رسالة كل حين، لكني خفت أن أطلب منه هذا الطلب، لكنه كعادته يفهم ما أريد دون أن أتحدث.

_حنان، أنا عايز أقولك كلمتين أنا مدين ليكِ بيهم من زمان، أوعي تفكري إنك كنتِ حد مش مهم في حياتي، أو سد خانة، أنتِ كنتِ أجمل و أحن بنت عرفتها في حياتي، حالة كدا عمرها ما هتتنسي، أنتِ بنتي البكر، أنا هفضل معاكي وعمري ما هتأخر عنك في أي حاجة، هفضل

السند ليكِ، و هفضل كمان الخبير الروسي بتاعك يا ستي، ماتقلقيش أنا جنبك، وهفضل مسئول عنك.

لا شك أن كلماته طمأنت قلبي قليلا، رغم أنني كنت علي يقين أنه بمجرد زواجه سينشغل عني، ولن نعود لنصف ما كنا، ولا أنا أيضا اقبل أن أكون طرفا ثالث بينهما.

****

النهايات موجعة في كل الأحوال، اختيار كلمات الوداع أصعب ما يكون، دائما تفوح منها رائحة الخيبة والحسرة.

نتعرف علي أشخاص أسعدونا لدرجة أننا لا نستطيع تحمل حياتنا بدونهم، نلتفت خلفنا ولا نجدهم فنُجبر علي الفراق الذي لم و لن يكون باختيارنا يوما ، ما يزيد متاعبنا أننا يجب أن نتألم بصمت، حتى لا يشعر من سيغادرنا بمعاناتنا، أشد ما يؤلم الروح عندما تتراكم الأحزان داخلها حتى لا نُحِّمل من نحبهم خوفًا أو حزنًا. لكن بالرغم من غياب الأحباب و فقدهم إلا أنهم يظلون في قلوبنا لا يغيبون، تبقى صوارهم في وجداننا، تبقى الذكريات التي جمعتنا بل تزيد من بريقها كل لحظة. نشتاق إليهم في كل ليلة، يؤلمنا الاشتياق، يزورنا اطيافهم في أحلامنا تارة، وفي يقظتنا تارة أخري، نتمنى النسيان فلا نستطيع، يبدو لنا أنه لا أمل في النسيان، لا أمل في اللقاء، ولا طريق للتناسي.
نخدع أنفسنا ونوهمها بالنسيان كمن يتناول" المسكنات "فلا الألم ينتهي ولا المسكنات تُساهم في الشفاء منه.

الثامن من ديسمبر، تاريخ جديد بمخزون التواريخ التي لا تُنسى .. زواج" عبدالله"، ترددت كثيرًا في حضوري حفل الزفاف، لكني بعد تفكير طويل قررت ألا أحضر، كان لابد أن أعطي فرصة لقلبي أن يستريح قليلا.

مرَّ شهر على غياب" عبدالله "عني، كنت حقًا مثل المدمن الذي لا يهدأ إلا بجرعة حتى لو قليلة .. أختنق كل ليلة أثناء نومي، أفيق علي صوت رنة هاتفي المخصصة له، وأمسك هاتفي أجدها مجرد خيالات..

كنت أتخيل أن رصيد السعادة التي تركها داخلي، ستكفي الأيام التي سأعيشها دونه، لكنها نفدت منذ اللحظات الأولى لرحيله، عانيت كثيرًا بدونه، حاولت أن أرتب حياتي وحدي، وأستكمل ما بدأه لي، أن أحافظ على وعدي له أن أكون بخير، لكني وجدت نفسي كلما هربت من التفكير به، أجد دقات قلبي تذكرني بصوته، كل شيء من حولي يذكرني به، لوحاته التي كان يشتريها لي، كتبه ورواياته التي يعطيها لي بعد انتهائه من قراءتها، هداياه المميزة، لوحاتي التي أرسمها وأكتب أسفل كل صورة حرف من اسمه كإهداء له، حتى الأوراق والكتب الخاصة بدراستي، لا تخلو من خطه وحروفه..

كيف لنا أن نحرق الماضي وهُم يَعيشون بكُل تفاصيل حاضرنا، وساهموا بأيديهم في بناء مُستقبلنا!

هكذا هي" الحياة "توهمنا أن السعادة ملك أيدينا، ثم ترمي بنا في بحر من التعاسة.

هربت من كل هذا، إلى عالمي الآخر، عدت مرة أخرى إلى شبكتي العنكبوتية، وحساباتي الموجودة بكل مواقع الدردشة والتواصل الاجتماعي، ضاعفت قائمة أصدقائي هذه المرة .. أقحمت نفسي بقوة في هذا العالم، حتى أنني أحيانا كنت أتحدث إلى أكثر من عشرة أشخاص في وقت واحد، وكل شخص بقصة جديدة وباسم مستعار جديد.

أصبحتْ حياتي بعد تخرُجي من الجامعة فارغة لا يملؤها سوى العلاقات الوهمية علي صفحات التواصل الاجتماعي .. تركت كل شيء أحبه كان له معني، الرسم، القراءة، حتى حديثي مع صديقاتي في الهاتف مللت منه، نادرة هي لحظات خروجي مع الأهل، وكانت كلها زيارات عائلية فقط ..

يوم بعد يوم كانت تزيد الفجوة بيني وبينهم، أصبحت أمامهم أربعًا وعشرين ساعة، رغم أني أحيانا كنت أجلس بغرفتي من لحظة استيقاظي حتى نومي، لا أحد منهم يطرق عليَّ باب غرفتي يسأل إذا كنت علي قيد الحياة أم لا.

****

قد أكون عند البعض فتاة سيئة متعددة العلاقات، أعرف رأي كل من ينظر إليَّ دون الخوض في تفاصيل حياتي، أخجل أحيانا من قصصي المثيرة للشفقة، دائما ما أهرب من التفكير في كل ما مضى .. أغلب الأوقات أتمنى لو كنت فاقدة للذاكرة، هذه الذاكرة الفولاذية التي تتذكر كل شيء، ذاكرة دسمة، مليئة بأحداث منذ الطفولة، أتمنى أن أستيقظ من النوم وأجد أن كل ما عشته هو مجرد كابوس، ومازلت في العاشرة من عمري.

أفتح كتابًا جديدًا، أكتب به سطورًا من الفرح، سطورًا بها رغباتي وأمنياتي، حياة جديدة، بصحبة أشخاص جدد، وأحلام وردية، ومستقبل اخترته لنفسي ، أحلم بقلبي الأبيض الذي غيره كل شيء، قلبي البريء الذي لم يحمل في يوم أي ضغينة لأحد، قلبي الذي أصبح مجرد مصفاة جروح، كل شيء بات يؤلمه، حتى نبضاته.

اليوم أكتب وأنا في عُمر الثامن والعشرين، لكن في الحقيقة نحن تم خداعنا بكلمة الأعمار، فالأعمار ليس لها علاقة أبدا بعمر القلب ولا العقل، أعيش بقلب عجوز لا يناسب أبدا سنوات عمري، حاولت أن أعيش أكثر من مرة، لكني في كل مرة أجد نفسي أفكر بالانتحار، استوطنتني هذه الفكرة، دائما أتخيل لو فعلتها حقا، وحررت تلك الروح من هذا الجسد، أجد عقلي مهيئًا للأفكار التي من شانها أن تُنهي حياتي.

أبي وأمي في نظرهما أني ملكيتهما الخاصة، عقد احتكار إلى الأبد، لا ينقض هذا العقد سوى بند الموت لإحدنا، اتفقنا على أن نتفق، نتفق على ماذا؟ أن أكون ملكهم، أوافق على كل شيء يختارونه لي، دراستي، أصدقائي، طعامي، تحركاتي، عملي، حتى أنهم أحيانا يختارون لي طريقة حديثي مع الناس، اتفقتُ أنا على هذه الشروط ولم أعارض يومًا، كإنسان آلي لا يفهم أي شيء، لكني عندما نضجتُ وبدأت أستوعب أنني إنسانة حرة، ولست آلية، كانت شخصيتي قد انتهت صلاحيتها.

الخوف استعمرني وتملَّك مني، خفت أن أصرخ، أن أرفض، أن أعارض، أن أقف بوجههم وأقول لا، حاولت أكثر من مرة، أن أتمسك برغبتي في العمل بعد تخرجي، لكني كنت أضعف

من أن أنطق حتى، كعادتي أدخل غرفتي وأحتضن وسادتي وأبكي أيامًا، شهورًا، سنة، وكعادتهم يتبعون سياسة النفس الطويل، كنت أُشبه تمامًا عرائس الماريونت.

فكرت أن أهرب منهم بالزواج، أن أتزوج أي شخص يتقدم لي، شخص لا أخشى على حياتي القادمة معه، ربما لم تعد تُهمني الحياة نفسها، أنا أخشى على أولادي، أخشى عليهم من نفسي، أخشى أن أُدمِّر حياتهم دون أن أشعر، أمراضي النفسية المكتومة بداخلي ستنفجر بهم، أقول لنفسي، كيف أُنجب أطفالا بحياة سوية وأنا مليئة بكل هذه التشوهات !

أخاف عليهم، رغم أن حلم الأمومة لا يغيب عن عقلي وقلبي، أرفضهم، رغم أنني لا أريد شيئا من الحياة سوى كف رقيق يحتضن إصبعي، حضن صغير أختبئ به، أعيش معه ما تبقى من عمري، لا أريد أبدًا أن أظلمه وأجعله يعيش حتى ولو لحظة واحدة من التي مررت بها، ليس له أي ذنب.

الحب الذي وجد بكل هذا القلب، أصبح لا يسع حتى زهرة، حتى حبي لنفسي تحول لكره وضغينة، أكره نفسي جدا كلما نظرت للمرآة، أكره ذلك الضعيف الهش الذي لا يملك حتى صوتًا، أنظر إلى عيني بلوم قاتل، أخبرهما "اتكلمي، اتكلمي"، الخوف أصبح وطنًا أعيش فيه وأتكلم بلغته، وأحمل جنسيته .

تلك الخطابات التي لم أرسلها لأمي، كانت من المحتمل أن تغير شيئًا بها لو قرأتها أو ذلك لحديث المكتوم الذي أدفنه لأبي، لو كنت أخبرته لربما لان قلبه، ربما !لكني دائما أجد بهم أرضًا بور، ليست مهيئة للإنبات.

حياتي انحصرت، في عمري الذي مضى، وقطر الزواج الذي مرَّ ولم ألحق به، كنت أسمع كلمة عانس في اليوم أكثر من عشرين مرة مع عريس أرفضه، أسمع أقسى العبارات:

"أنتِ بتتأمري على خيبة إيه دا انتي عانس، أنتِ فاكره نفسك هتتجوزي ده، أنتِ عنّستي، أنتِ داخله على الثلاثين مافيش حد هيبصلك، الـخ"

أنا اليوم أشعر بسعادة عندما أرى نظرة الحسرة التي بعين أمي، حسرتها لأنها أم لعانس، ترضيني هذه النظرة جدًا، لأنني تمنيت كثيرًا أن تشعري بقليل من حسرتي التي شربتها منك.

لم أطمح أن أعيش حياة أكثر من عادية، كل ما حلمت به، احتواء أب و أم وأسرة، حلمت بعائلة سوية، تحتضنني بكل عطف وحب، لا أريد أكثر من صدر يتسع لقلبي، لم أتمنَ أكثر من طفولة طبيعية، لا تحمل حزنا ولا ذكريات مؤلمة، كل ما كنت أرجوه هو أن أعيش كل مرحلة في عمري بما يناسبها، لم أتمنَ أيَّ شيء سوى الحياة بدون ألم، أستيقظ علي صوت أبي الدافئ، وأنام على قُبلة من أمي .

تلك الأمنيات التي دائما تلوح في الأفق، تؤرقني كثيرًا كلما عجزت عن تحقيقها، رغم أنني لم املك حق اختيار أي شيء.

الحب الذي أمضيت سنوات من عمري أبحث عنه بين قلوب سوداء لا تحمل بين جدرانها غير الكُره والعداء، مرت سنوات، وأنا أحمل قلبي بين كفي، أبحث عمن يستحق، كنت في كل مرة أسقط بها، أستمد قوة إضافية لنفسي كي أقف مرة أخرى علي قدمي، أُزيل الغبار من علي قلبي، و أسير مجددًا في طريقي؛ لأتعثر في جرح جديد، وأسقط، وأقف مرة جديدة ، إلا أنني استنفدت كل طاقتي ، لم أقدر أن أقف مجددًا، قدمي لم تستطع إسعافي، بقيت بجسدٍ مُنهك وقلب عجوز، وروح متهالكة بلا صوت.

تملكا الحزن مني واليأس، انتصر كل هؤلاء على قلبي، استسلمت في النهاية، استسلمت، ووافقت أن أكون" عروسة الماريونت.. "

إلي الأب والأم

أما بعد،،،

خطابي اليوم هو آخر خطاب لكما، كتبت الكثير من الخطابات ولم أرسلها لكم، لكن اليوم قررت لأول مرة بحياتي أن أسمح لكم بقراءة ما أكُتب، ستكون عباراتي بسيطة ومختصرة عن أي خطاب سابق، نظرًا لضيق وقتكما، ونقص معدل تأنيب الضمير لديكما.

بهذا الخطاب سأمنحكما تذكرة سفر داخل قلبي المُتهالك، وأطلب منكما ألا تندهشا إذا وجدتما أنفسكما بمكان غامق شديد الظلام، هذا من صُنع يداكما، أُحملكما كل ألم و حسرة وندم وجرح مررت بهم، أحملكما كل دمعة و قهر وحزن وفشل، كل هفوة بحياتي .. نعم أنتما الشماعة التي سأُعلق عليها كل شيء، ظللت أفتش طوال حياتي عن حب وعطف بقلوبكما، لم أجد يومًا سوى الكُره، بحثت عنه بين قلوب لا تختلف عنكما، و لم أجد سوى كل غدر.

طوال عمري وأنتما تُسْقونني الجفاء والقسوة، كنت بالنسبة لكما مجرد تمثال من الطين تنحتون فيه بيد من كُره، أود أن أشكركما فأنا شربت من قسوتكما حتى الثُمالة، قسوة جعلتني أعلم أنك مريض يا أبي ولا يروق لقلبي أن يدخل إلى غرفتك كي يراك !! قسوة جعلتني كل ليلة ألوم قلبي على كل هذا الكُره الذي تمكن منه، كيف أصبحتْ" حنان "بكل هذه القسوة؟!

قلبكما الأسود دمرا كل شيء، دمرا عمري الذي أراد له الله أن يُكتب .. قلوبكم قاسية كليلٍ طويل على خائف، كسيولٍ علي مسكين بلا مأوى..

سنوات مرت وأنتما تقصَّانِ عليَّ كل قصص البر بالوالدين، وأوامر الخالق في طاعة الآباء، وكأن الله لم يأمركما أنتما أيضًا بالرحمة بأبنائكما، كأن الله لن يعاقبكما علي تقصيركما!، قصرتما كثيرا، قصرتما دائمًا، وسنقف أمام الله يومًا وسأخبره أنكم أصبتمانني بمكروه.

لا أعلم إن كنتما تحبونني أم لا، لم يعد هذا السؤال يشغل حيزا من تفكيري، محبتكما لي أصبحت لا تعني لي شيئًا، ولا تضيف لي أي شيء، لكني دائمًا أسأل نفسي، هل أحبُّكم أم لا؟ !دائما أهرب من الإجابة، واليوم وأنا اكتب هذا الخطاب تأكدت من المشاعر التي أحملها لكم، وجدت أنني لا أحمل لكم أيَّ مشاعر، لا كُره ولا حب.

سنوات عمري مرَّت، وأنا أبحث عن شيء واحد فقط، شيء بسيط، واليوم لم يعد لعقلي رغبةً بأيِّ شيء، ولم يعد لقلبي أيَّ " احتياج."

سلاماتاً علي قلوبكم

حنان

تمت بحمد الله